

التقوى الدرة المفقودة والغاية المنشودة

الدكتور أحمد فريد

بسم الله الرحمن الرحيم مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ]
(آل عمران : ١٠٢)

[يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا] (النساء : ١)

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا] (الأحزاب : ٧٠ ، ٧١)

ثم أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .
ففي مثل هذه الازمنة الغابرة التي استولت فيها الغفلة على القلوب ، وضعفت فيها العين المتطلعة إلى الآخرة فلا تكاد ترى ، وظن الناس أن السعيد من فاز في الدنيا بشهواتها ، ومن وصل إلى جاهها وسلطانها ، والشقى من حرم هذا الخير

العظيم والرزق الكريم وهذا من الغفلة الشنيعة والجهل البليغ بالسعادة الحقيقية والشرف العظيم الذى جعله الله عز وجل للمتقين فى الحياة ويوم يقوم الناس لرب العالمين ولو ذاقت قلوب أهل الدنيا شيئاً من مواجيد أهل التقوى وما يجدونه من العزة والشرف فى الدنيا مع ما ينتظرهم من سعادة الآخرة ونعيمها لأكلوا أصابعهم ندماً وحسرة على ما فاتهم من الخير ويفوتهم إذا استمرت غفلتهم ،

فالتقوى كما قال الغزالي رحمة الله : كنز عزيز ، فلئن ظفرت به كم تجد فيه من جوهر شريف ، وخير كثير ، ورزق كريم ، وفوز كبير ، وغنم جسيم ، وملك عظيم ، فكأن خيرات الدنيا والآخرة جمعت فجعلت تحت هذه الخصلة الواحدة التى هى تقوى الله ، وتأمل ما فى القرآن من ذكرها فكم علق بها من خير وكم وعد عليها من خير وثواب وكم أضاف إليها من سعادة ^(١) .

فاهل التقوى هم ملوك الدنيا كما أنهم ملوك الآخرة وهم وأهل السعادة الحقيقية والشرف العظيم فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى : **[وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى]** (طه : ١٣٢)
وقال تعالى : **[وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ]** (الزخرف : ٣٥)

وأنت يا أخى الكريم معى فى هذا الكتاب نسير مع التقوى فى كل باب لعلى وإياك عند الختام يمن الله علينا بالتوبة النصوح وما لها من الفتوح ويجعلنا من المتقين ، الذين تقرأ أعينهم فى الدنيا بالطاعات وفى الآخرة بالجنات ، وقد جمعت لك فى هذا الكتاب من المعانى الشريفة ، والفوائد اللطيفة ما تتشرح له القلوب ، وتقترب به من علام الغيوب وغفار الذنوب ، فبدأت بذكر معانى التقوى وأقسامها ، وثبتت بذكر شرفها وخطرها ، وثم اجتهدت فى الباب الثالث فى بيان ما تتطلع إليه قلوب اصحاب الهمم العالية والنفوس الأبية

وهو فى بيان كيف تتقى الله عز وجل وذكرت لك خمسة وسائل :
الأولى محبة الله عز وجل ،

والثانية فى استحضار المراقبة والحياء ،

(١) منهاج العابدين (٧) مكتبة الجندى

والثالثة فى معرفة ما فى طريق الحرام من الشرور والالام ،
والرابعة فى بيان كيف تغالب هواك وتطيع مولاك،
والخامسة فى معرفة مكائد الشيطان ومصائده ، والحذر من وساوسه ودسائسه ،

ثم زدتك تشريفا وتعريفا باصحاب الرتب العالية والدرجات الرفيعة السامية، بذكر صفات المتقين ، وختمت بحسن الختام ، وهو رحله فى رياض التقوى ننزة قلوبنا وابصارنا برؤية ثمرات التقوى العاجلة والآجلة.

والامر كما يقال :

طبيب يداوى والطبيب سقيم

ولولا ما نطمع فيه من رحمة الله وعفوه وكرمه ، وان لا نحرم دعوة سالحة من اخ كريم لتقطعت القلوب ياسا من النفوس وصلاحها وقلة تقواها ، ولا تظن ان من تكلم عن التقوى فقد صار بذلك من المتقين ، فما اظهر الفرق بين العلم بوجوه الغنى واكتساب الاموال وهو فقير وبين العلم بأسباب الصحة وهو سقيم ، ولكن نرجو بذكر القوم ومحبتهم ان نجد ريحا من اثار غبارهم او ان نلحق ولو بساقتهم

وكما قال ابن الجوزى رحمه الله :

إن صدقت فى طلابهم فانهض وبادر، ولا تستصعب طريقهم فالمعين قادر، تعرض لمن اعطاهم وسل فمولاك مولاهم ، رب كنز وقع به فقير ، ورب فضل اختص به صغير ، علم الخضر ما خفى على موسى وكشف لسليمان ما خفى على داود ^(١) .

(١) المدهش لابن الجوزى (٤٢٨) بتصرف دار الكتب العلمية

وسوف تجد فى صحبة هذا الكتاب ومبانيه ما يبين لك شرف معانيه ، فتجد شرف التقوى فى طياته وسعادتها بين وريقاته ،

نسأل الله أن يجعلنا من أهلها وأن يقسم لنا من كنوزها وثمراتها . وأن يبارك فى هذا الكتاب وفى جامعة وناشره ومن قرأه يلتبس الهداية والتوفيق ،
والله الهادى لاقوم طريق فهو الذى تفر القلوب بمحبته فى الدنيا ورؤيته فى الجنة ،
وصلى الله على رسوله المصطفى واله واصحابه ومن اتبع السنة وسلم تسليماً .

وكتبه

الشيخ / أحمد فريد

معنى التقوى ومراتبها

□ **المعنى اللغوى :** قال فى المصباح : وقاه الله السوء وقاية : حفظه

والوقاء مثل كتاب كل ما وقيت به شيئاً ، وروى أبو عبيد عن الكسائى الفتح فى (الوقاية) و (الوقاء) أيضاً و (اتقيت) الله (اتقاءً) و (التقية) و (التقوى) اسم منه والتاء مبدله من واو والأصل (وقى) أهـ (١).

□ **المعنى الشرعى :** اختلفت تعبيرات العلماء فى تعريف التقوى مع أن الجميع يدور

حول مفهوم واحد ، وهو أن يأخذ العبد وقايته من سخط الله عز وجل وعذابه ، وذلك بامتنال الأمور واجتناب المحظور .

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله :

وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه

فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك ، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه ، وتاره تضاف التقوى إلى اسم الله عز وجل ،

كقوله تعالى : [وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ] (المائدة : ٩٦)

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ]
..... (الحشر : ١٨)

فإذا اضيفت التقوى إليه سبحانه وتعالى فالمعنى اتقوا سخطه وغضبه وهو أعظم ما يتقى ، وعن ذلك ينشأ عقابة الدنيوى والاخرى ، قال تعالى [وَيَحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ] (آل عمران : ٢٨)

وقال تعالى [هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ] (المائدة : ٥٦)

فهو سبحانه أهل ان يخشى ويهاب ويجل ويعظم فى صدور عباده ، حتى يعبدوه ويطيعوه ، لما يستحقه من الإجلال والإكرام ، وصفات الكبرياء والعظمة وقوة البطش .

(١) المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير للرافعى (٦٦٩) - دار المعارف .

وفى الترمذى عن انس عن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الاية :
[هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى] قال الله تعالى : **(أنا أهل التقوى فمن اتقانى فلم يجعل معى إليها آخر فأنا أهل أن أغفر له)** ^(١)

وتارة تضاف التقوى إلى عقاب الله ، أو إلى مكانه كالنار ، أو إلى زمانه كيوم القيامة
 كما قال تعالى : **[وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ]** (آل عمران : ١٣١)
 وقال تعالى : **[فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ]**
 (البقرة : ٢٤)
 وقال تعالى : **[وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ]** (البقرة : ٢٨١)
 وقال تعالى : **[وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا]** (البقرة : ٤٨)

وبدخلى فى التقوى الكاملة فعل الواجبات وترك المحرمات والشبهات وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات وترك المكروهات.

قال تعالى : **[الم ~ (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ]** ^(٢) (البقرة : ١ - ٤)

وقال ابن القيم رحمه الله :

وأما التقوى فحقيقتها العمل بطاعة الله إيماناً واحتساباً ، أمراً ونهيّاً ، فيفعل ما أمر الله به إيماناً بالأمر وتصديقاً بوعده ، ويترك ما نهى الله عنه إيماناً بالنهى وخوفاً من وعيده ،
 كما قال طلق بن حبيب : ” إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى . قالوا : وما التقوى ؟ قال : أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله ” .

^(١) رواه أحمد (٣ / ١٤٢ ، ٢٤٣) وابن ماجه (٤٢٩٩) الزهد ، والدرامى (٢ / ٣٠٣) الرقاق ، وضعفه الألبانى .

^(٢) جامع العلوم والحكم (١٤٨ - ١٤٩) بأختصار .

وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى ، فإن كل عمل لا بد له من مبدأ وغاية ، فلا يكون العمل طاعة وقربة حتى يكون مصدره عن الإيمان فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض لا العادة ولا الهوى ولا طلب المحمدة والجاه وغير ذلك ، بل لابد أن يكون مبدأه محض الإيمان وغايته ثواب الله وابتغاء مرضاته وهو الإحتساب .

ولهذا كثيراً ما يقرن بين هذين الاصلين في مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم :
(من صام رمضان إيماناً واحتساباً)^(١) ، (ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً)^(٢)
 ونظائره . فقله : (على نور من الله) إشارة إلى الأصل الأول وهو مصدر العمل والسبب الباعث عليه . وقوله (ترجو ثواب الله) إشارة إلى الأصل الثاني وهو الإحتساب ، وهو الغاية التي لأجلها توقع العمل ويقصد به^(٣).

وقال العلامة نعمان بن محمود الألوسي رحمه الله :

وفي تحفة الإخوان : التقوى إمتثال الاوامر واجتناب النواهي ولها ثلاث مراتب :
الأولى : التقوى من العذاب المخلد بالتبلى من الشرك وعليه قوله تعالى : **[وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةً النَّقْوَى]** (الفتح : ٢٦)

والثانية : التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم ، وهو المتعارف بالتقوى في الشرع وهو المعنى بقوله تعالى : **[وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا]**

(الاعراف : ٩٦) وعلى هذا قول عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه :
 التقوى ترك ما حرم الله وأداء ما افترض الله ، فما رزق الله بعد ذلك فهو خير إلى خير .

(١) رواه البخارى (١١٥ / ٤) الصوم

(٢) رواه البخارى (٢٥٥ / ٤) فضل ليلة القدر ، ومسلم (٤٠ / ٦ ، ٤١) صلاة المسافرين

(٣) الرسالة التبوكيه بتحقيق أشرف عبد المقصود ونشر مكتبة التوعية الإسلامية (١٥ - ١٧)

والثالثة : أن يتنزّه عما يشتغل سره عن الله تعالى ، وهذه هى التقوى الحقيقية المطلوبة بقوله تعالى : **[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ]** (آل عمران : ١٠٢)
وقال ابن عمر : لا ترى نفسك خيراً من أحد . (١)

وقال الغزالي رحمه الله :

اعلم أولاً - بارك الله فى دينك وزاد فى يقينك - أن التقوى فى قول شيوخنا رحمهم الله هى تنزيه القلب عن ذنب لم يسبق عنك مثله ، حتى تحصل لك من القوة والعزم على تركه وقاية بينك وبين المعاصى .

فإذن لما حصلت وقاية بين العبد وبين المعاصى من قوة عزمه على تركها ، وتوطين قلبه على ذلك ، فيوصف حينئذ بأنه متق ، ويقال لذلك التنزيه والعزم والتوطين : التقوى .

والتقوى فى القرآن : تطلق على ثلاثة اشياء : أحدهما بمعنى الخشية والهيبة .

قال تعالى : **[وَإِيَّايَ فَاتَّقُون]** (البقرة : ٤١) وقال تعالى : **[وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ]** (البقرة : ٢٨١) ، والثانى بمعنى الطاعة والعبادة قال الله تعالى :

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ] (آل عمران : ١٠٢)

قال ابن العباس رضى اله عنهما : اطيعوا الله حق طاعته.

وقال مجاهد : هو أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر

والثالث : بمعنى تنزيه القلب عن الذنوب ، فهذه هى الحقيقة عن التقوى دون الأولين ألا ترى أن الله يقول **[وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ]** (النور : ٥٢) ذكر الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى ، فعلمت أن حقيقة التقوى معنى سوى الطاعة والخشية ، وهى تنزيه القلب عما ذكرناه ،

(١) غالبية المواضع ومصباح المتعظ وقبس الواضع (٢ / ٤٨) دار المعرفة .

وقول ابن عمر رضى الله عنهما يشير إلى نوع من التقوى وليست التقوى الكامله ، وأصح من ذلك أن يقال هو نوع من الزهد ، وهو الزهد فى النفس ، والزهد فى النفس أقصى غاية الزهد .

ثم قالوا : منازل التقوى ثلاثة :

تقوى عن الشرك وتقوى عن البدعة ، وتقوى عن المعاصى الفرعية ، ولقد ذكرها الله تعالى فى آية واحدة وهى قوله جل من قائل :

[لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ...] (المائدة : ٩٣)

فالتقوى الأولى عن الشرك ، والإيمان الذى فى مقابلتها التوحيد ، والتقوى الثانية من البدعة ، والإيمان الذى ذكر معها إقرار عقود السنة والجماعة ، والتقوى الثالثة عن المعاصى الفرعية ، ولا إقرار فى هذه المنزلة فقابلها بالإحسان وهو الطاعة والاستقامة عليها ، فتكون منزلة السنة ، ومنزلة استقامة الطاعة .

قال : وأنا وجدت التقوى بمعنى اجتناب فضول الحلال ، وهو ما روى فى الخبر المشهور عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : **(إنما سُمي المتقون متقين لتركهم ما لا بأس به حذراً عما به بأس)** ^(١) .

فهذه أقوال العلماء فى معنى التقوى وأقسامها ولا شك أن اسم التقوى يسع ما ذكر ، وأحوال الناس معها لا تعارض ذلك ، فمن الناس من يقى نفسه الخلود فى النار ، وذلك بالإقرار بالتوحيد وتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم ولكنه لا يقى نفسه خلود النار بالكلية ، فيفرط فى الواجبات ويتلبس بالمخالفات ، فهذا نوع من التقوى وإن كان فى أدنى درجاتها ، ولا يستحق صاحبها اسم المتقى بإطلاق ، لأنه متعرض للعذاب مستحق للعقاب ، إن لم تتداركه رحمة الله فإنه تعالى لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ،

(١) منهاج العابدين (٧٤ ، ٧٥) بتصرف مكتبة الجندى .

والحديث رواه الترمذى (٢٧٨ / ٩) ، القيامة وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وابن ماجه (٤٢١٥) الزهد ، والحاكم (٣١٩ / ٤) الرقاق وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى وقال الألبانى : هذا عجب منه فإن عبد الله بن يزيد لم يوثقه أحد وضعفه فى بلوغ المرام (٨٧١) وضعيف ابن ماجه (٩٢٤) .

ومن الناس من يتقى الكفر وكبائر الذنوب إلا إنه لا يتورع عن الصغائر ولا يكثر من النوافل .
 فلا شك أنه أقرب للنجاة لقول الله عز وجل : [**إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا**] (النساء : ٣١) وقوله صلى الله عليه وسلم :
(الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر) .^(١)

إلا أن لم يأخذ الجنة الكاملة من النار ، فلا بد أن يكون هناك من التقصير فى الفرائض والوقوع فى الصغائر التى يخشى من المداومة عليها التجرؤ على الكبائر ، وليس له من نوافل الطاعات واجتتاب الشبهات والمكروهات ما يكمل به تقوى العبد ،
 لذا قال الله عز وجل : [**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**] .. (آل عمران : ١٠٢)

فالتقوى الحقيقية هى أن يجتهد العبد فى ترك الذنوب كلها صغارها وكبارها ، ويجتهد فى الطاعات كلها الواجبات والنوافل ما استطاع ،
 لعل كثرة النوافل تعوض ما قد يعرض من تقصير وإجتتاب الصغائر يجعل بين العبد وبين الكبائر جنة حصينة كما قال عز وجل : [**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**] (التغابن : ١٦)
 فمثل هذا يستحق اسم المتقى ، واجتهاده فى الطاعات كلها من الواجبات والنوافل وترك المعاصى ما استطاع من كبائر وصغائر وترك ما لا بأس به حذراً مما به بأس
 هو التقوى التى دارت عليها أقوال السلف .

قال أبو الدرداء : تمام التقوى أن يتقى الله العبد حتى يتقيه من مثقال ذرة ، وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً ، يكون حجاباً بينه وبين الحرام ، فإن الله قد بين للعباد الذى يصيرهم إليه فقال :
[فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ] ... (الزلزله : ٧-٨)

فلا تحقرن شيئاً من الخير أن تفعله ولا شيئاً من الشر أن تتقيه .

^(١) رواه مسلم (١١٨ ، ١١٧ / ٣) الطهارة ، والترمذى (١٥ - ١٤ / ٢) الصلاة .

وقال الحسن : ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام .

وقال الثوري : إنما سموا متقين لأنهم اتقوا ما لا يتقى .

وقال موسى بن أبيين : المتقون تنزهوا عن أشياء من الحلال مخافة أن يقعوا في الحرام فسماهم الله متقين .

وقال ميمون بن مهران : المتقى أشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح لشريكه .

وقال ابن مسعود في قوله تعالى : [اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ] (آل عمران : ١٠٢)

قال : أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر . (١)

قال ابن رجب رحمه الله :

وشكره يدخل فيه جميع فعل الطاعات ومعنى ذكره فلا ينسى : ذكر العبد بقلبه لأوامر الله في حركاته وسكناته وكلماته فيتمثلها ، ولنواهيها في ذلك كله فيجتنبها ، وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات ، كما قال أبو هريرة وسئل عن التقوى فقال : هل أخذت طريقاً ذا شوك ؟ قال : نعم ، قال : فكيف صنعت ؟ قال : إذا رايت الشوك عزلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه : قال ذاك التقوى .

وأخذ هذا ابن المعتز وقال :

وأكبرها فهو التقى	خل الذنوب صغيرها
أرض الشوك يحذر ما يرى	وأصنع كماش فوق
إن الجبال من العصي	ولا تحقرن صغيرة

(١) رواه الحاكم (٢ / ٢٩٤) التفسير ، دون قوله : " وأن يشكر فلا يكفر " وقال على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي

وأصل التقوى أن يعلم العبد ما يتقى ثم يتقى .

ذكر معروف الكرخي عن بكر بن خنيس قال : كيف يكون متقياً من لا يدري ما يتقى ؟ ثم قال معروف الكرخي : إذا كنت لا تحسن تتقى أكلت الربا ، وإذا كنت لا تحسن تتقى لقيتك امرأة فلم تغض بصرك ، وإذا كنت لا تحسن تتقى وضعت سيفك على عاتقك . (١)

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة سعيد بن مسلم . قال سعيد :
لقد حدثني سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنباً فاستصغره فأثاه أت في منامه فقال له يا سليمان :

لا تحقرن من الذنوب صغيراً	إن الصغير ناداً يعود كبيراً
إن الصغير ولو تقدم محمده	عند الإله مسطراً تسطيراً
فأزجر هواك عن البطالة لا تكن	صعب القياد وشمراً تشميراً
إن المحب إذا أحب إلهه	طار الفؤاد وألمم التفكيراً
فأسأل هدايتك الإله فتتبد	فكفي بربكم هادياً ونصيراً

وقال الإمام أحمد رحمه الله : التقوى هي ترك ما تهوى لما تخشى .
وقيل : هي الخوف من الجليل ، والرضا بالتنزيل ، والإستعداد ليوم الرحيل .
وقيل : هي أن لا يراك الله حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك .
وقيل : هي علم القلب بقرب الرب .

نسأل الله أن يهدينا سواء السبيل ، وأن يغفر لنا ما بدا من تقصير ، وأن يدخلنا برحمته في شفاعة البشير النذير فقد بان بما ذكرنا عن التقوى فقرنا من أقسامها ومعانيها وإفلاسنا من أعلامها ومبانيها.

(١) باختصار من جامع العلوم والحكم (١٤٠ - ١٥٠) .

شرف التقوى وأهميتها

١- التقوى وصية الله عز وجل للأولين والآخرين

قال الله تعالى : [وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ (النساء: ١٣١)]

قال الغزالي :

أليس الله تعالى أعلم بصلاح العبد من كل أحد ، أو ليس هو أنصح له وارحم وأرأف من كل أحد ، ولو كانت في العالم خصلة هي أصلح للعبد ، وأجمع للخير وأعظم للأجر ، وأجل في العبودية ، وأعظم في القدر ، وأولى بالحال ، وأنجح في المال ، من هذه الخصلة التي هي التقوى، لكان الله تعالى أمر بها عبادة ، وأوصى خواصه بذلك لكمال حكمته وسعة رحمته ، فلما أوصى بهذه الخصلة الواحده ، وجمع الأولين والآخرين من عباده في ذلك واقتصر عليها ، علمت أنها الغاية التي لا يتجاوز عنها ، ولا مقصود دونها ، وأنه عز وجل قد جمع كل نصح ودلالة وإرشاد وتنبيه وتأديب وتعليم وتهذيب في هذه الخصلة التي هي التقوى هي الجامعة لخيري الدنيا والآخرة الكافية لجميع المهمات المبلغة إلى أعلى الدرجات . وهذا أصل لا مزيد عليه ، وفيه كفاية لمن أبصر النور واهتدى وعمل بذلك واستغنى والله ولي الهداية والتوفيق بمنه. ^(١)

(١) منهاج العابدين (٧٢ ، ٧٣) باختصار .

٢- التقوى وصية النبي صلى الله عليه وسلم لأُمَّته

عن العرباض بن سارية قال : (صلى بنا رسوله الله صلى الله عليه وسلم الصبح فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل : يا رسول الله كأنها موعظة مودع فاوصنا فقال : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كان عبداً حبشياً ، فإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة) (١).

قوله : " أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة " .

قال ابن رجب رحمه الله :

فهاتان الكلمتان تجمعان سعادة الدنيا والآخرة ، أما التقوى فهي كافلة سعادة الدنيا والآخرة لمن تمسك بها ، وهي وصية الله للأولين والآخرين ، وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين ففيها سعادة الدنيا ، وبها تنظم مصالح العباد في معاشهم ، وبها يستعينون على إظهار دينهم و طاعة ربهم " (٢).

وعن أبي ذر جندب بن جنادة وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اتق الله حيث ما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن) (٣) وقوله صلى الله عليه وسلم : "حيثما كنت" أى : فى السر والعلانية ، حيث يراه الناس وحيث لا يرونه.

(١) رواه أحمد (٤ / ١٢٦ - ١٢٧) ، وأبو داود (٤٥٨٣) السنة ، والترمذى (٢٦٧٦) العلم ، وابن ماجه (٣٤) ،

والدرامى (١ / ٤٤ - ٥٤) المقدمة ، والبغوى (١ / ٢٠٥) شرح السنة وقال الترمذى : هذا حسن صحيح ، وصححه الألبانى .

(٢) جامع العلوم والحكم (٢٤٧) باختصار .

(٣) رواه الترمذى (٨ / ١٥٥) البر ، وقال : هذا حسن صحيح ، وأحمد (٥ / ١٥٨) وحسنه الألبانى (١٦١٨) صحيح الترمذى .

وعن أبي هريره رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم يوماً لأصحابه (من يأخذ عنى هؤلاء الكلمات فيعمل بهن ، أو يعلم من يعمل بهن ؟ قال أبو هريره: قلت : أنا يا رسول الله ، فأخذ بيدي وعد خمساً فقال : اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً ، واحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً ، ولا تكثر الضحك ، فإن كثرة الضحك تميت القلب) .^(١)

وعن أبي أمامه قال : سمعت رسول الله صلى عليه وسلم يخطب فى حجة الوداع فقال : (اتقوا الله وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وادوا زكاة أموالكم ، وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم) .^(٢)

وعن أبي سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى اله عليه وسلم (أوصيك بتقوى الله تعالى فإنه رأس كل شئ وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ، فإن روحك فى السماء وذكرك فى الأرض) .^(٣)

وعن ابى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى اله عليه وسلم (أوصيك بتقوى الله فى سر أمرك وعلايته ، وإذا اسأت فأحسن ، ولا تسالن احداً شيئاً ، ولا تقبض أمانة ولا تقض بين اثنين) .^(٤)

(١) رواه الترمذى (٩ / ١٨٣ - ١٨٤) الزهد ، وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث جعفر بن سليمان ، و رواه أحمد (٢ / ٣١٠) ، وابن ماجه (٤٢١٧) الزهد بمعناه وحسنه الألبانى ، وكذا فى تحقيق جامع الأصول .

(٢) رواه الترمذى (٦١١١ تحفة) الصلاة ، وقال: هذا حديث حسن صحيح، رواه أحمد (٥ / ٢٥١) ، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وصححه الألبانى .

(٣) رواه أحمد (٣ / ٨٢) وحسنه الألبانى بشأهده وهو فى الصحيحة رقم (٥٥٥) .

(٤) رواه أحمد (٥ / ١٨١) وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع رقم (٢٥٤١) .

وعن أبي هريره رضى الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اوصيك بتقوى الله والتكبير على كل شرف) .^(١)

وكان دعاء النبى صلى الله عليه وسلم : (اللهم أت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها) .^(٢)

(١) رواه أحمد (٢ / ٣٢٥ - ٣٣١) ، وابن ماجه (٢٧٧١) الوصايا ، والحاكم (١ / ٤٤٥ - ٤٤٦) (٢ / ٩٨) وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وقال الألبانى فى الصحيحة (١٧٣٠) وهو كما قال إلا أن أسامه بن زيد الليثى فيه كلام يسير حسن الأسناد .

(٢) رواه مسلم (١٧ / ٤١) بزياده فى أوله وآخره ، وأحمد (٤ / ٣٧١) ، (٦ / ٢٠٩) بلفظ رب أعط نفسي تقواها .

٣- التقوى هي وصية جميع الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام

قال تعالى : [كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ] ... (الشعراء : ١٠٥ - ١٠٦)

قال تعالى : [كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ] (الشعراء : ١٢٣ - ١٢٤)

وقال تعالى : [كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ] (الشعراء : ١٤١ - ١٤٢)

وقال تعالى : [كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ] (الشعراء : ١٦٠ - ١٦١)

وقال تعالى : [وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ] (الشعراء : ١٠ - ١١)

ولا شك ان الرسل هم أركى البشر وانصح الناس لهم ، فلو علموا أن هناك خصلة للناس انفع لهم من التقوى لما عدلوا عنها ، فلما اجمعوا عليها بان خطرها وعظم موقعها وشرفها نسأل الله أن يجعلنا من أهلها العاملين بها والمتعاونين عليها.

٤ - التقوى وصية السلف الصالح رضى الله عنهم

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله : ولم يزل السلف الصالحون يتواصون بها :
كان أبو بكر رضى الله عنه يقول فى خطبته : أما بعد فإنى أوصيكم بتقوى الله ، وان تشنوا عليه
بما هو أهله ، وان تخطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسالة
فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: [إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ
وَيَدْعُونََنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ] (الانبياء : ٩٠)

ولما حضرته الوفاة وعهد إلى عمر دعاه فوصاه بوصيته ، وأول ما قاله له : اتق الله يا عمر .
وكتب عمر إلى ابنه عبد الله : أما بعد ، فإنى أوصيك بتقوى الله عز وجل ، فإنه من اتقاه وقاه
، ومن أقرضه جزاه ، ومن شكره زاده ، واجعل التقوى نصب عينيك ، وجلاء قلبك .
وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل : أوصيك بتقوى الله عز وجل ، والتي لا يقبل غيرها ،
ولا يرحم إلا أهلها ، ولا يثاب إلا عليها ، فإن الواعظين بها كثير ، والعاملين بها قليل ،
جعلنا الله وإياك من المتقين .

ولما ولى خطب فحمد الله وأثنى عليه وقال : أوصيكم بتقوى الله عز وجل ، فإن تقوى الله
عز وجل خلف من كل شئ ، وليس من تقوى الله خلف.

وقال رجل ليونس بن عبيد :

أوصنى ، فقال : أوصيك بتقوى الله والإحسان ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

وكتب رجل من السلف إلى أخ له : أوصيك بتقوى الله فإنها من أكرم ما أسررت ، وأزين ما أظهرت ، وأفضل ما ادخرت أعاننا الله وإياك عليها وأوجب لنا ولك ثوابها.

وقال شعبه : كنت إذا أردت الخروج قلت للحكم : ألك حاجة فقال :
أوصيك بما أوصى به النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل :
(اتق الله حيث ما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن) . (١)

وقال ابن القيم رحمه الله : ودع ابن عون رجلاً فقال :
عليك بتقوى الله فإن المتقى ليست عليه وحشه .

وقال زيد بن أسد : كان يقال : من اتقى الله أحبه الناس وإن كرهوا .

وقال الثوري لابن أبي ذئب : إن اتقيت الله كفاك الناس ، وإن اتقيت الناس لن يغنوا عنك من الله شيئاً . (٢)

(١) ، (٢) باختصار من جامع العلوم والحكم (١٥٠ - ١٥١) والحديث تقدم تخريجه صفحة .

٥ - التقوى أجمل لباس يتزين به العبد

قال الله تعالى : [يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ] (الاعراف : ٢٦)

فبعد ان تمنن الله عز وجل على عبادة بما جعل لهم من اللباس والريش .
واللباس ما يستتر به العورات ، والريش والرياش ما يتجمل به - فالاول من الضروريات والثاني من الزيادات التكميليات - دلهم على أفضل لباس وهو ما يوارى عورات الظاهر والباطن ويتجمل به ، وهو لباس التقوى .

قال القرطبي رحمه الله : قوله تعالى : " وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ " يبين ان التقوى خير لباس
كما قيل ^(١):

تقلبه عريانا وان كان كاسيا
ولا خير فيمن كان عاصيا ^(٢)

اذا المرء لم ثيابا من التقوى
وخير لباس المرء طاعة ربه

وروى قاسم بن مالك عن عوف عن معبد الجهنى قال : (لباس التقوى) الحياء .

وقال ابن عباس : (لباس لتقوى) هم العمل الصالح . وعنه أيضا : السمت الحسن فى الوجه .

وقيل : ما علمه الله عز وجل وهدى به .

ومن قال إنه لبس الخشن من الثياب فإنه أقرب إلى التواضع وترك الرعونات فدعوى ، فقد كان الفضلاء من العلماء يلبسون الرفيع من الثياب مع حصول التقوى . ^(٣)

(١) الفوائد (١٧) دار الدعوة الإسكندرية .

(٢) البيتان منسوبان لأبى العتاهيه .

٦ - التقوى هي أفضل زاد يتزود به العبد

قال الله عز وجل : [وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ] ...
..... (البقرة : ١٩٧)

قال ابن كثير رحمه الله :

وقوله : " فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى " لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا ، أرشدهم إلى زاد الآخرة ، وهو استصحاب التقوى إليها ، كما قال تعالى : " وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ " "

لما ذكر اللباس الحسى ، نبه مرشداً إلى اللباس المعنوى ، وهو الخشوع والطاعة والتقوى ، وذكر أنه خير من هذا وأنفع ، قال عطاء الخرساني في قوله : " فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى " يعني زاد الآخرة. (١)

وقال الزمخشري رحمه الله : أى اجعلوا زادكم إلى الآخرة اتقاء القبائح ، فإن خير الزاد اتقائها وقيل : كان أهل اليمن لا يتزودون ويقولون نحن متوكلون ، ونحن نحج بيت الله أفلا يطعمنا فيكونون كلاً على الناس ، فنزلت فيهم ،

ومعناه : وتزودوا واتقوا الاستطعام وإبرام (٢) الناس والتثقل عليهم
فإن خير الزاد التقوى : " وَاتَّقُونِ " : وخافوا عقابي " يَا أُولِي الْأَلْبَابِ "
يعنى : أن قضية اللب تقوى الله ومن لم يتقيه من الألباء فكأنه لا لب له . (٣)

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٣ / ٢٦٢٠ - ٢٦٢١) باختصار

(١) تفسير القرآن الكريم (١ / ٢٣٩) دار المعرفة .

(٢) أي إملأهم وإضجارهم .

(٣) الكشف (١ / ٢٤٤) الريان .

٧- أهل التقوى هم أولياء الله عز وجل وهم أكرم الناس

قال تعالى : [أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ] (يونس : ٦٢ - ٦٣)
 وقال تعالى : [هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ] (الجاثية : ١٩)

وقال عز وجل مبينا أنه لا يستحق الولاية إلا أهل هذه المنزلة العالية والرتبة السامية فقال عز وجل : [إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ] ... (الأنفال : ٣٤)
 وجعل الله عز وجل التقوى هى الميزان الحق الذى يوزن به الناس ، لا ميزان الحسب والنسب والمال والشهرة ، فقال عز وجل : [إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ] (الحجرات : ١٣)
 وهذا الميزان كذلك هو ميزان النبى صلى الله عليه وسلم .

عن أبى هريره رضى الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس؟ قال (اتقاهم لله)^(١) ،

قال الشنقيطى رحمه الله : إن الفضل والكرم إنما هو بتقوى الله لا بغيره من الانتساب إلى القبائل ، ولقد صدق من قال :

فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الكفر الشريفه أبا لهب
 وقد ذكروا أن سلمان رضى الله عنه كان يقول :
 أبى الإسلام لا أبى لى سواه إذا افتخروا بقبس أو تميمه

فأكرم الناس وفضلهم أتقاهم لله ولا كرم ولا فضل لغير المتقى ولو كان رفيع النسب .^(٢)

(١) رواه البخارى (٤١٧ / ٦) أحاديث الأنبياء .

(٢) أضواء البيان (٦٣٥ / ٧) بتصرف .

٨- ولشرف التقوى أمر الله عز وجل المسلمين بالتعاون عليها ونهاهم عن التعاون على ما يخالفها

قال تعالى : [وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ]
..... (المائدة : ٢)

قال القرطبي رحمه الله:

قال الماوردي : ندب الله سبحانه إلى التعاون بالبر وقرنه بالتقوى لله ، لأن في التقوى رضا الله تعالى ، وفي البر رضا الناس ، ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته.

وقال ابن خويّز منقاد في الحكمة : والتعاون على البر والتقوى يكون بوجوه ، فواجب على العالم ان يعين الناس بعلمه فيعلمهم ، ويعينهم الغنى بماله والشجاع بشجاعته في سبيل الله ، وان يكون المسلمين متظاهرين كاليد الواحدة
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم) . (١)

وقال القاسمي رحمه الله :

وفي "الإكليل" استدلل المالكية بالآية على بطلان إجارة الإنسان نفسه لحمل خمر ونحوه ، وبيع العنب لعصره خمرأً ، والسلاح لمن يعصى به وأشباه ذلك انتهى وهو متجه. (٢)

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣ / ٢٠٤٤) والحديث رواه أبو داود (٤٥٠٧) الدييات ، وابن ماجه (٢٦٨٣) الحدود وصححه الألباني .

(٢) محاسن التأويل (٦ / ٢٥) بتصرف .

وقال ابن القيم رحمه الله:

وقد اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم فيما بينهم وبعضهم بعضا وفيما بينهم وبين ربهم ، فإن كل عبد لا ينفك عن هاتين الحالتين ، وهذين الواجبين : واجب بينه وبين الله ، وواجب بينه وبين الخلق ،

فأما ما بينه وبين الخلق من المعاشرة والمعاونة والصحبة فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعه بهم وصحبته لهم متعاوناً على مرضاة الله وطاعته ، التي هي غاية العبد وفلاحه ، ولا سعادة له إلا بها ، وهي البر والتقوى ، الذين هما جماع الدين كله. ^(١)

(١) الرسالة التبوكية (١٢) .

كيف تتقى الله عز وجل

هذا باب لا يدخل فيه إلا النفوس الفاضلة الشريفة الأبية ، التى لا تقنع بالدون ، ولا تتبع الأعلى بالأدنى بيع العاجز المغبون .

فبعد أن بينا شرف التقوى وتشوقت النفوس إليها فقد يقول قائل :

بالله عليك كيف أحوز هذه الجوهرة النفيسة وأصل إلى هذه المرتبة الشريفة ، فإن المؤمن إذا رغب فى الخير رغب ، وإذا خوف من الشر هرب ، ولا خير فيمن إذا زجر لا ينزجر ، وإذا أمر لا ياتمر .

قال الغزالي رحمه الله : " إنما الفضيلة فى أمر هذه النفس أن تقوم عليها بقوة العزم فتمنعها عن كل معصية ، وتصونها عن كل فضول ، فإذا فعلت ذلك كنت قد اتقيت الله تعالى فى عينك وأذنك ولسانك وقلبك وبطنك وفرجك وجميع أركانك ، وأجمتها بلجام التقوى ، ولهذا الباب شرح يطول ، وأما الذي لا بد منه هاهنا فأن نقول : من أراد أن يتقى الله فليراع الأعضاء الخمسة فإنهن الأصول : وهى العين والأذن واللسان والقلب والبطن ، فيحرص عليها بالصيانة لها عن كل ما يخاف منه ضرراً فى أمر الدين من معصية وحرام وفضول وإسراف من حلال ، وإذا حصل صيانة هذه الأعضاء فمرجو إن يكف سائر أركانه ، ويكون قد قام بالتقوى الجامعة بجميع بدنه لله تعالى " .^(١)

فإن قلت : كيف لى أن أصون الأعضاء الخمسة عن معصية الله عز وجل ؟ وكيف أقيدها بطاعة الله ، فإن هذا لب السؤال وغاية الآمال والسبب الموصل إلى رحمة الكبير المتعال ؟ قلت : سوف اجمع لك من السطور ما يبين لى ولك الطريق ، والله ولى التوفيق .

(١) منهاج العابدين (٦٧ / ٧٧) باختصار .

□ والأخص ذلك في خمسة أمور :

- ١- محبة الله عز وجل تغلب على قلب العبد يدع لها كل محبوب ويضحى في سبيلها بكل مرغوب
- ٢- أن تستشعر في قلبك مراقبة الله عز وجل وتستحي منه حق الحياء .
- ٣- أن تعلم ما في سبيل المعاصي والاثام من الشرور والآلام .
- ٤- أن تعلم كيف تغالب هواك وتطيع مولاك .
- ٥- أن تدرس مكائد الشيطان ومصائده ، وان تحذر من وساوسه ودسائسه.

١- محبة الله عز وجل :

قال ابن القيم رحمه الله : فالمحبة شجرة فى القلب ، عروقها الذل للمحبوب وساقها معرفته ، وأغصانها خشيته ، وورقها الحياء منه ، وثمرتها طاعته ، ومادتها التى تسقيها ذكره ، فمتى خلا الحب عن شئ من ذلك كان ناقصاً .^(١)

وقال ابن رجب رحمه الله : ومحبة الله سبحانه وتعالى على درجتين : أحدهما : فرض لازم ، وهى أن يحب الله سبحانه وتعالى محبة توجب له محبة ما فرضه الله عليه ، وبغض ما حرمه عليه ، ومحبة لرسوله المبلغ عنه أمره ونهيه ، وتقديم محبته على النفوس والاهلين والرضا بما بلغه عن الله من الدين ، وتلقى ذلك بالرضى والتسليم ، ومحبة الانبياء والرسول والمتبعين لهم باحسان جملة ، وعموماً لله عز وجل ، وبغض الكفار والفجار جملة وعموماً لله عز وجل وهذا القدر لابد منه فى تمام الايمان الواجب ، ومن اخل بشئ منه فقد نقص من ايمانه الواجب بحسب ذلك ، قال الله عز وجل : **[فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا]** .. (النساء : ٦٥) وكذلك ينقص من محبته الواجبة بحسب ما أخل به من ذلك ، فإن المحبة الواجبة تقتضى فعل الواجبات وترك المحرمات .

الدرجة الثانية : درجة السابقين المقربين ، وهى أن ترتقى المحبة إلى محبة ما يحبه من نوافل الطاعات ، وكراهة ما يكرهه من دقائق المكروهات ، وإلى الرضا بما يقدره ويقضيه مما يؤلم النفوس من المصائب ، وهذا أفضل مستحب مندوب إليه وفى صحيح البخاري عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم :

قال : (يقول الله عز وجل : من عادى لى ولياً فقد أذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشئ أحب إليه مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوفل حتى أحببه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى

(١) روضة المحبين (٩٠٤) دار الصفا .

بها ، ولئن سألتني لأعطينه ، ولئن استعازني لأعينه ، وما تردت عن شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته (١).

قال ابن القيم رحمه الله :

ولو لم يكن في المحبة إلا أنها تتجى محبه من عذابه ، لكان ينبغي للعبد أن لا يتعوض عنها بشيء أبداً . وسئل بعض العلماء أين تجد في القرآن إن الحبيب لا يعذب حبيبه : في قوله تعالى : [وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ (٢)] : (المائدة : ١٨)

□ الأسباب الجالبة للمحبة :

- ١- قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه .
- ٢- التقرب إلى الله عز وجل بالنوافل بعد الفرائض .
- ٣- دوام ذكره بالقلب واللسان .
- ٤- إثارة محابه على محابك عند غلبات الهوى
- ٥ - مطالعة أسمائه وصفاته ، ومشاهدتها ، والتقلب في رياض معانيها.
- ٦- تذكر نعمه وإحسانه وبره على العبد ، فإن القلوب جلبت على محبة من أحسن إليها وبغض من اساء إليها .
- ٧- الخلوة به وقت النزول الإلهي والإذن العام ، عند قوله عز وجل : هل من سائل .. هل من تائب .. هل من مستغفر (١).
- ٨- مجالسة المحبين الصادقين ، والتقاط أطياب ثمرات كلامهم.
- ٩- مباحة كل سبب يحول بين القلب وبين الله من الشهوات والشبهات .
- ١٠- التفكير في مصنوعاته الدالة على كماله ، فإن القلوب مفطورة على محبة الكمال ، وكان السلف يفضلون التفكير على عبادة البدن .

(١) استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس (١١ - ١٥) باختصار ، والحديث رواه البخارى (١ / ٣٤١) الرقاق ، وأبو نعيم في الحلية (١ / ٤) ، وانظر طرق الحديث في الصحيحة رقم (١٦٤٠) .

(٢) روضة المحبين (٤١٦) .

(١) حديث النزول رواه البخارى (١٣ / ٤٦٤) التوحيد ، ومسلم (٦ / ٣٨ ، ٣٩) والترمذى (١٣ / ٣٠) الدعوات ، وأبو داود (١٣٠١) الصلاة .

١١- تذكر ما ورد في الكتاب والسنة من رؤية أهل الجنة لربهم وزيارتهم له واجتماعهم يوم المزيد .

ولا شك في أن الاشتغال بهذه الاسباب الجالبة للمحبة مما يشغل القلب بطاعة الله ويبيعه عن المعاصي، ثم إذا كملت المحبة فإن المحب لا يعصى محبوبه كما قيل :

تعصى الإله وأنت تزعم حبه هذا لعمري في القياس شنيع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المعبود لمن يحب مطيع

وإذا فتح للعبد هذا الباب الشريف ، ودخل هذا القصر المنيف ، فإنه تحبب إليه الطاعات ويجد فيها منتهى راحته وسعادته ،

قال النبي صلى الله عليه وسلم : (وجعلت قرّة عيني في الصلاة)^(١)، وكان يصلي حتى ترم ساقاه وتشقق قدماه فيقال له في ذلك فيقول صلى الله عليه وسلم: (أفلا أكون عبداً شكوراً)^(٢)

فمحبة الله عز وجل من أعظم أسباب التقوى ،
كما قال القائل:

وكن لربك ذا حبه لتخدمه إن المعبدين للأحباب خدام

فإن المحب يسر بخدمة محبوبه وطاعته ، ولا تطاوعه نفسه على معصيته كما قال بعض الصالحين : إني لا أحسن أن أعصى الله . أي أن جوارحه لا تأتي معه في المعصية ، لمحبتها للطاعات ، وبغضها للمعاصي .

كما نصحت إحدى الصالحات من السلف بنبيها فقالت لهم :
" تعودوا حب الله وطاعته فإن المتقين ألفت جوارحهم الطاعة فاستوحشت من غيرها ، فإذا أمرهم الملعون بمعصية ، مرت المعصية بهم محتشمه فهم لها منكرون " .

فنسال الله الغنى الكريم أن يمن علينا بمحبته وأن يوفقنا لأسباب فضله ورحمته.

(١) رواه أحمد (١٢٨ / ٣) والنسائي (٦١ / ٧) عشرة النساء ، والحاكم (١٦٠ / ٢) النكاح وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي وصححه الألباني في الصحيحة رقم (١٨٠٩) .

(٢) رواه البخاري (١٤ / ٣) التهجد موصولاً عن المغيرة وبمعناه معلقاً عن عائشه ، وابن ماجه (١٤١٩)

٢- ومما يعين على تقوى الله عز وجل أن يدرّب العبد نفسه على المراقبة وان يستشعر اطلاع الله عز وجل عليه فيستحي عند ذلك من المعصية ويجتهد فى الطاعة :

قال الله تعالى : [وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ] ... (الحديد : ٤)
 قال ابن كثير رحمه الله : أى رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم ، من بر أو بحر ، فى ليل أو نهار ، فى البيوت أو القفار ، الجميع فى علمه على السواء ، وتحت بصره وسمعه فيسمع كلامكم ، ويرى مكانكم ، ويعلم سرّكم ونجواكم .^(١)

وقال تعالى : [أَلَا إِنَّهُمْ يَمُنُّونَ أَصْدُورَهُمْ لَيْسَتَّخَفُوا مِنْهُ إِلَّا حِينَ يَسْتَعْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ] (هود : ٥)

قال الشنقيطي رحمه الله :

بين الله تعالى فى هذه الآية الكريمه أنه لا يخفى عليه شىء ، وان السر كالعلانية عنده ، فهو عالم بما تنطوى عليه الضمائر وما يعلن وما يسر والايات المبينة لهذا كثيرة جدا كقوله تعالى : [وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسُّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ] ... (ق : ١٦)
 وقوله جلا وعلا [وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ] .. (البقره : ٢٣٥)
 وقوله [فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ] (الأعراف : ٧)

وقوله [وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ] (يونس : ٦١)

ولا تقلب ورقة من المصحف الكريم إلا وجدت فيها أية بهذا المعنى.

(١) تفسير القرآن العظيم (٤ / ٣٠٤) .

ثم قال تحت عنوان : تنبيه هام :

اعلم ان الله تبارك وتعالى ما أنزل من السماء الى الارض واعظاً أكبر ولا زاجراً أعظم مما تضمنته هذه الايات الكريمة وامثالها فى القرآن ، من انه تعالى عالم بكل ما يعمله خلقه ، رقيب عليهم ، ليس بغائب عما يفعلون ، وضرب العلماء لهذا الواعظ الاكبر والزاجر الاعظم مثلاً ليصير به كالمحسوس فقالوا :

لو فرضنا ان ملكاً قتالاً للرجال ، سفاكاً للدماء ، شديد البطش والنكال على من انتهك حرمة ظلماً وسيافه قائم على رأسه ، والنطع مبسوط للقتل ، والسيف يقطر دماً ، وحول هذا الملك الذى هذه صفته جواريه وازواجه وبناته ، فهل ترى ان احداً من الحاضرين يهتم بريية او بحرام يناله من بنات الملك وازواجه ، وهو ينظر اليه ، عالم بأنه مطلع عليه ؟ لا وكلا ، بل جميع الحاضرين يكونون خائفين ، وجلة قلوبهم ، خاشعة عيونهم ، ساكنة جوارحهم ، خوفاً من بطش ذلك الملك .

ولا شك والله المثل الأعلى أن رب السموات والارض جل وعلا أشد علماً واعظم مراقبةً ، واشد بطشاً واعظم نكالاً وعقوبةً من ذلك الملك ، وحماه فى أرضه محارمه ، فإذا لاحظ الإنسان الضعيف أن ربه جل وعلا ليس بغائب عنه ، وأنه مطلع على ما يقول وما يفعل وما ينوى ، لان قلبه ، وخشى الله تعالى ، وأحسن عمله لله جل وعلا .^(١)

وقد دلت الأحاديث الشريفة على ما دلت عليه هذه الآيات الكريمات من وجوب مراقبة الله تعالى ، والاستحياء منه حق الحياء .

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (استحيوا من الله حق الحياء ، من استحيى من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى ، وليحفظ البطن وما حوى ، وليذكر الموت والبلا ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء) .^(١)

(١) أضواء البيان : (٩ / ٣ - ١٠)

(١) رواه الترمذي (٩٠ / ٢٨١) القيامه ، والحاكم (٤ / ٣٢٣) الرقاق وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وحسنه الألبانى .

قال المناوي في الفيض : " استحيوا من الله حق الحياء " بترك الشهوات والنهمات ، وتحمل المكاره على النفس حتى تصير مدبوغة ، فعندها تظهر الأخلاق ، وتشرق أنوار الأسماء في صدر العبد ، ويقرر علمه بالله فيعيش غنياً بالله ماعاش .

قال البيضاوي : ليس حق الحياء من الله ما تحسبونه ، بل أن يحفظ نفسه بجميع جوارحه عما لا يرضاه من فعل وقول .

وقال سيفان بن عيينه : الحياء أخف التقوى ، ولا يخاف العبد حتى يستحي ، وهل دخل أهل التقوى إلا من الحياء (من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس) أى راسه (وما وعى) : ما جمعه من الحواس الظاهرة والباطنة ، وحتى لا يستعملها إلا فيما يحل (وليحفظ البطن وما حوى) أى : وما جمعه الجوف باتصاله به من القلب والفرج واليدين والرجلين ، فإن هذه الأعضاء متصله بالجوف فلا يستعمل منها شئ فى معصية الله ، فإن الله ناظر إلى العبد لا يواريه شئ .^(٢)

وعن أسامة بن شريك رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما كرهت أن يراه الناس منك فلا تفعله بنفسك إذا خلوت) .^(٣)

وعن ثوبان رضى الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لأعملن أقواماً من أمتى يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء فيجعلها الله هباء منثوراً ، أما إنهم إخوانكم ، ومن جلدتكم ، ويأخذون من الليل كما تأخذون ، ولكنهم قوم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها) .^(١)

(٢) فيض القدير (١ / ٤٨٨)

(٣) رواه ابن حبان فى روضة العقلاء : (١٢ - ١٣) ، والضياء فى المختارة (١ / ٤٤٩) وقال الألبانى : والأسناد ضعيف قال : ثم وجدت للحديث شاهداً مرسلأ فى (جامع بن وهب) ص ٦٥ - فالحديث به حسن إن شاء الله - الصحيحة (١٠٥٥) .

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٤٥) الزهد وصححه الألبانى فى الصحيحة (٥٠٥)

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ثلاث مهلكات وثلاث منجيات : فقال : ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه . وثلاث منجيات : خشية الله فى السر والعلانية ، والقصد فى الفقر والغنى ، والعدل فى الغضب والرضا) .^(٢)

قال المناوى : قدم السر لأن تقوى الله فيه أعلى درجة من العلن لما يخاف من شوب رؤية الناس ، وهذه درجة المراقبة وخشيته فيهما تمنع من إرتكاب كل منهى ، وتحثه على فعل كل مأمور ، فإن حصل للعبد غفلة عن ملاحظة خوفه وتقواه فارتكب مخالفة مولاه لجأ إلى التوبة ثم داوم الخشية .^(٣)

وسئل النبی صلى الله عليه وسلم عن الإحسان فى الحديث المسمى بأمر السنه فقال صلى الله عليه وسلم : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) .^(٤)

قال النووي رحمه الله : " هذا من جوامع الكلم التى أوتيتها صلى الله عليه وسلم ، لأننا لو قدرنا أن احداً قام فى عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى ، لم يترك شيئاً ما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمات واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتيممها على أحسن وجوهاها إلا أتى به فقال صلى الله عليه وسلم : (اعبد الله فى جميع أحوالك كعبادتك فى حال العيان) فإن التتيمم المذكور فى حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سبحانه وتعالى عليه ، فلا يقدم العبد على تقصير فى هذا الحال للاطلاع عليه ، وهذا المعنى موجود مع رؤية العبد ، فينبغى أن يعمل بمقتضاه ، فمقصود الكلام الحث على الأخلاص فى العبادة ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى فى إتمام الخضوع والخشوع وغير ذلك ، وقد ندب أهل الحقائق إلى مجالسة

(٢) رواه البزار (٥٨) ، والعقلى (ص ٣٥٢) وأبو بكر الدينورى فى (المجالسة وجواهر العلم) والسياق له ، وأبو نعيم

(٢ / ٣٤٣) وله طرق هو بمجموعها حسن ، باختصار من الصحيحة (١٨٠٢)

(٣) فيض القدير (٣ / ٣٠٧)

(٤) رواه البخارى (١ / ١١٤) الإيمان ، ومسلم (١ / ١٥٧ ، ١٥٨) الإيمان ، والترمذى (١٠ - ٨٧ / ٨٨) الإيمان ، وأبو

داود

(٤٦٧٠) السنه ، والنسائى (٨ / ٩٧) الإيمان .

الصالحين ليكون ذلك مانعاً من تلبسه من النقائص إحتراماً لهم وإستحياءً منهم ، فكيف بمن لا يزال الله مطلعاً عليه فى سره وعلايته (١).

وقال ابن رجب رحمه الله : يشير إلى أن العبد يعبد الله تعالى على هذه الصفة وهو استحضار قربهِ ، وأنه بين يديه كأنه يراه ، وذلك يوجب الخشية والهيبة والتعظيم ن كما جاء فى رواية أبى هريره : (أن تخشى الله كأنك تراه) ويوجب أيضاً النصح فى العبادة وبذل الجهد فى تحسينها وإتمامها وإكمالها ، وقد وصى النبى صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة بهذه الوصية .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (فإن لم تكن تراه فإنه يراك) قيل : إنه تعليل للأول ، فإن العبد إذا أمر بمراقبة الله تعالى فى العبادة واستحضار قربهِ من عبده حتى كأن العبد يراه فإنه قد يشق ذلك عليه ، فيستعين على ذلك بإيمانه بأن الله يراه ويطلع على سره وعلايته وباطنه وظاهره ، ولا يخفى عليه شئ من أمره فإذا تحقق هذا المقام سهل عليه الانتقال إلى المقام الثانى، وهو دوام التحقق بالبصيرة إلى قرب الله من عبده ومعيته حتى كأنه يراه ، وقيل : بل هو إشارة إلى أن من شق عليه أن يعبد الله كأنه يراه فليعبد الله على أن الله يراه ويطلع عليه فليستحى من نظره إليه ، كما قال بعض العارفين : اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك . وقال بعضهم : خف الله على قدر قدرته عليك واستحى من الله على قدر قربهِ منك . (٢)

وصفوة الكلام أن يقال : مما يعين على التقوى التدرب على مراقبة الله عز وجل وإحساس القلب بقربة وإطلاعه ، فيستحى العبد عند ذلك من المعصية ويبذل جهده فى أداء الطاعة على أحسن وجوها ، وهذه بعض الآثار فى تقرير هذا المعنى :

ذكر عن أعرابى قال : خرجت فى بعض ليالى الظلم فإذا أنا بجارية كأنها علم (١) ، فأردتها عن نفسها فقالت : ويلك أما كان لك زاجر من عقل إذا لم يكن لك ناهٍ من دين ؟ فقلت : إنه والله ما يرانا إلا الكواكب ، فقالت : فأين مكوكبها.

(١) شرح النووى على صحيح مسلم (١ / ١٥٧ - ١٥٨) .

(٢) جامع العلوم والحكم (٣٣ - ٣٤) باختصار .

(١) علم : أي جبل

وسئل الجنيد بم يستعان على غض البصر ؟ قال : بعلمك أن نظر الله إليك أسبق إلى ما تنتظر إليه.

وقال الحارث المحاسبى : المراقبة علم القلب بقرب الرب .

وكان الإمام أحمد ينشد :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليه يغيب

٣- ومما يعين على التقوى معرفة ما فى سبيل الحرام من المفسد والألام

فليس فى الدنيا والآخرة شر و داء إلا وسببه الذنوب والمعاصى ،
قال ابن القيم رحمه الله : فما الذى أخرج الأبوين من الجنة دار اللذة والنعيم
 والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب .

وما الذى أخرج إبليس من ملكوت السماء ، وطرده ولعنه ومسخ ظاهره وباطنه فجعلت صورته
 أقرب صورته وأشنعها ، وباطنه أقبح من صورته وأشنع وبدل بالقرب بعداً ، وبالرحمة لعنه ،
 وبالجنة ناراً تلظى ، فهان على الله غاية الهوان ، وسقط من عينه غاية السقوط ، فصار
 قوداً لكل فاسق ومجرم ، رضى لنفسه بالقيادة بعد تلك العباداة والسيادة ، فعياداً بك اللهم
 من مخالفة أمرك ، وأرتكاب نهيك .

وما الذى أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال .

وما الذى سلط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على سطح الأرض كأنهم
 أعجاز نخل خاوية ، ودمرت ما مرت عليه من ديارهم وحروثهم ، وما الذى أرسل على
 قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم فى أجوافهم وماتوا عن آخرهم ؟ وما الذى رفع
 قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم ثم قلبها عليهم ، فجعل عاليها سافلها ، ثم أتبعهم
 حجارة من سجيل ، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمه غيرهم ، ولإخوانهم أمثالها
 وما هى من الظالمين ببعيد ، وما الذى أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل ،
 فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم ناراً تلظى ؟ وما الذى أغرق فرعون وقومه فى البحر ،
 ثم نقلت ارواحهم إلى جهنم ، فالأجساد للغرق ، والأرواح للحرق ، وما الذى أهلك القرون من
 بعد نوح ودمرها تدميراً^(١).

(١) الجواب الكافى باختصار (٤٢ - ٤٣) دار عمر بن الخطاب .

ثم ذكر رحمه الله آثار الذنوب والمعاصي فلتراجع فإنها مفيدة جداً في الزجر عن معصية الله والمباعدة عنها ، وهي التقوى المقصودة والدرة المفقودة ، نسال الله السلامه ، ونعوذ بالله من الحسرة والندامة ، فحقيق بكل عاقل أن لا يسلك طريقاً حتى يعلم سلامتها وأفاتها ، وما توصل إليه من سلامة أو عطب ، ولا شك أن سبيل المعاصي فيه من التعرض للعذاب العاجل والأجل وضيق الصدر والرزق وبغض الخلق ومحق البركة فهي كطعام لذيذ مسموم يتمتع به لحظات وتبقى آلامه في الحياة وبعد الممات كما قال القائل :

تفنى اللذاذة من نال لذتها	من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء من مغبتها	لا خير في لذة من بعدها النار

٤- ومما يعين على التقوى أن تتعلم كيف تغالب هواك وتطيع مولاك

قال الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله : " إذا همت نفسك بالمعصية فذكرها بالله ، فإذا لم ترجع فذكرها بأخلاق الرجال ، فإذا لم ترجع فذكرها بالفضيحة إذا علم الناس ، فإذا لم ترجع فاعلم أنك تلك الساعة انقلبت إلى حيوان " . (١)

وقال ابن القيم رحمه الله : " وملاك الأمر كله الرغبة في الله وأرادة وجهه والتقرب إليه بأنواع الوسائل والشوق إلى الوصول إليه ، وإلى لقائه ، فإن لم يكن للعبد همة على ذلك فالرغبة في الجنة ونعيمها وما أعد الله فيها لأوليائه ، فإن لم تكن له همة عالية تطالبه بذلك ، فخشية النار وما أعد الله فيها لمن عصاه ، فإن لم تطاوعه نفسه لشئ من ذلك ، فليعلم أنه خلق للجحيم لا للنعيم ، ولا يقدر على ذلك بعد قدر الله وتوفيقه إلا بمخالفة هواه .

فلم يجعل الله طريقاً إلى الجنة غير متابعتة ، ولم يجعل للنار طريقاً غير مخالفتة ، قال الله تعالى :

[فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى] (النازعات : ٣٧ - ٤١)

وقال تعالى : [وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ] (الرحمن : ٤٦)

قيل : هو العبد يهوى المعصية فيذكر مقام ربه عليه في الدنيا ومقامه بين يديه في الآخرة فيتركها لله .

وقد أخبر الله عز وجل أن اتباع الهوى يضل عن سبيله فقال الله تعالى :

[يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ] (١) .. (ص : ٢٦)

وقد حكم الله تعالى لتابع هواه بغير هدى من الله أنه أظلم الظالمين فقال الله عز وجل :

[فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيَرٌ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ] (القصص : ٥٠)

(١) علمتنى الحياه (٣٢) نقلاً عن هامش رسالة المسترشدين للمحاسبي (١٦٠) بتحقيق وتعليق عبد الفتاح أبو غدة .

(١) روضة المحبين (٤٠١ - ٤٠٢) باختصار .

وجعل سبحانه وتعالى المتبوع قسمين لا ثالث لهما : إما ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وإما الهوى : فمن اتبع أحدهما لم يمكنه إتباع الآخر .^(٢)

وقال ابن الجوزي رحمه الله : " الحذر الحذر من المعاصي فإنها سيئة العواقب ، والحذر من الذنوب خصوصاً ذنوب الخلوات ، فإن المبالغة لله تعالى تسقط العبد من عينه سبحانه ، ولا ينال لذة المعاصي إلا دائم الغفلة ، فأما المؤمن اليقظان فإنه لا يلتذ بها ، لأنه عند إلتذاذه يقف بإيذائه علمه بتحريمها ، وحذره من عقوبتها ، فإن قويت معرفته رأى بعين علمه قرب الناهي - وهو الله - فيتنغص عيشه في حال إلتذاذه ، فإن غلبه سكر القلب متنغصاً بهذه المراقبات ، وإن كان الطبع في شهوته فما هي إلا لحظة ثم خزي دائم وندم ملازم وبكاء متواصل وأسف على ما كان مع طول الزمان ، حتى لو تيقن العفو وقف بإزائه حذر العتاب .

فأف للذنوب ! ما أقبح أثارها ؟ وأسوأ أخبارها ؟ ولا كانت شهوه لا تتال إلا بمقدار قوة الغفلة .^(١)

وقال ابن القيم رحمه الله : " واعلم أن الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة ، فإن الشهوة إما أن توجب ألماً وعقوبة ، وغما أن تقطع لذة أكمل منها ، وإما أن تضيع وقتاً وإضاعته حسرة وندامة ، وإما أن تتلم عرضاً توفيره أنفع للعبد من ثلمه ، وإما أن تذهب مالاً بقاؤه خير من ذهابه ، وإما أن تضع قدراً قيامه خير من وضعه ، وإما أن تسلب نعمة بقاؤها ألد من قضاء الشهوة " .^(٢)

وخلاصة هذا الفصل أن الناس هي ترك المعاصي والتورع عنها دوافع متعددة :

- منهم من يدفعه عن معصية محبة الله عز وجل وإجلاله أن يخالف أمره ويرتكب نهيه كما قال بعضهم : وددت أن جلدي قرض بالمقارض ، وأن هؤلاء الخلق أطاعوا الله عز وجل ، وهذه أعلى مراتب خشية واغلى دوافع التقوى.

(٢) السابق (٤٠٤)

(١) صيد الخاطر (١٢٩) بتصرف .

(٢) الفوائد (١٨٢ - ١٨٣) دار الدعوة .

- ومن الناس من يدفعه عن المعصية الرغبة في دار القرار وما فيها من نعيم مقيم للأبرار ، قال النبي صلى اله عليه وسلم : (من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة إلا أن يتوب) .^(٣)

فالتمتع بالحرام في دار الفناء سبب للحرمان من النعيم المقيم في دار البقاء ، فلن يجعل الله من أذهب طيباته في حياته الدنيا واستمتع بها كمن صام عنها ليوم فطره من الدنيا إذا لقي الله عز وجل . قال بعضهم :

أنت في دار شتات	فتأهب لشتاتك
واجعل الدنيا كيوم	صمته عن شهواتك
واجعل الفطر عند الله	في يوم وفاتك

قال الخطابي : معناه لم يدخل الجنة ، لأن الخمر شراب أهل الجنة (جامع الاصول ٩٩/٥)

وقال النووي : معناه أنه يحرم شربها في الجنة وإن دخلها من فاخر شراب الجنة فيمنعها هذا العاصي بشربها في الدنيا ، وقيل إنه ينسى شهوتها لان الجنة فيها كل ما يشتهي ، وقيل لا يشتهيها وإن ذكرها ويكون هذا نقص نعيم في حقه تمييزاً بينه وبين تارك شربها - النووي على صحيح مسلم (١٣ / ١٧٣) .

- ومنهم من يتركها خوفاً من النار وإتقاء غضب الجبار . قال بعضهم :

إذا ما هممنا صدنا وازم التقى فولى على أعقابهم الهم خاسناً

وقال آخر :

لا خير فيمن لا يراقب ربه عند الهوى ويخافه إيماناً
حبب التقى سبل الهوى فأخو التقى يخشى إذا وافى المعاد هواناً

(3) رواه البخارى (٣٠ / ١٠) ، و مسلم (١٧٣ / ١٣) الأشرية بهذا اللفظ ، ومالك في الموطأ (٨٤٦ / ٢) الأشرية ، وأبو داود (٣٦٦٢) الأشرية ، والترمذى (٤٨ / ٨) الأشرية والنسائى (٣١٨ / ٨) الأشرية .

- ومنهم من يتركها خوف العار والشنار^(١) واستبقاء الحياء والوقار كما قال بعضهم :

ما إن دعاني الهوى لفاحشة إلا نهاني الحياء والكرم
فلا إلى فاحش مددت يدي ولا مشيت بي لريبة قدم

- ومنهم من يترك المعصية لما يعقبها من شرور ومصائب وآلام كما قال بعضهم :

وكم من معاص نال منهن لذة وماتت فخلها وذاق الدواهيها
تصرم لذات المعاصي وتنقض وتبقى تباعث المعاصي كما هيأ
فيا سوءتأ والله راء وسامع لعبد بعين الله يخشى المعاصي

- ومنهم من يحمله على ترك المعاصي لذة العفة والاستعلاء عن أتباع الهوى فإن
لذلك حلاوة في القلوب لا يعرفها إلا من ذاقها .

كما قال بعضهم :

وإنني لمشتاق إلى كل غاية من المبدد يكبو دونها المتطاول
بذول لمالي حين يبخل ذو النهي بحفيظ عن الفهشاء قرم خلل^(١)

- ومنهم من يتركها لأنها تنافي المروءة والشهامة كما قال عنتره وهو من شعراء
العصر الجاهلي لم يسمع قول الله عز وجل : [قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ
أَبْصَارِهِمْ] (النور : ٣٠)

وأغض طرفي إن بدت لي جارتني حتى يوارى جارتني مأواها

- ومنهم من يتركها إستحياء من الناس ولا يخشى الله عز وجل وهذه أدنى المراتب :
- كما قال بعضهم :

لم يكن شأنى العفاف ولكن كنت خلا لزوجها فاستحييت

(١) الشنار : هو أقبح العيب .

(١) القرم : السيد المعظم والحلال : السيد فى عشيرته .

٥- ومما يعين على تقوى الله عز وجل معرفة مكائد الشيطان ومصائده ،
والحذر من وساوسه ووسائسه :

قال العلامة ابن مفلح المقدسى رحمه الله : اعلم أن الشيطان يقف للمؤمنين فى سبع عقبات ،
عقبة الكفر ، فإن سلم منه ففى عقبة البدعة ، ثم فى عقبة فعل الكبائر ، ثم فى عقبة
فعل الصغائر ، فإن سلم منه ففى عقبة فعل المبيحات فيشغله بها عن الطاعات ،
فإن غلبه شغله بالأعمال المفضولة عن الأعمال الفاضلة ، فإن سلم من ذلك وقف له فى العقبة
السابعة ، ولا يسلم منها المؤمن إذ لو سلم منها أحد لسلم منه رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهى تسليط الأعداء الفجرة بأنواع الأذى . (١)

فلا شك فى أن معرفة العقبات التى يقف عندها الشيطان ، ومعرفة مداخله إلى قلب ابن آدم مما
يعين على الحذر منه ، وأولى من ذلك بالذكر أن تعرف أن الشيطان عدو لبنى آدم فلا يمكن أن
يأمره بخير أو ينهاه عن شر .

قال الله تعالى : [إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا
مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ] (فاطر : ٦)
وقال تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ
الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ] (النور : ٢١)

قال أبو الفرج بن الجوزى : " إنما يدخل إبليس على الناس بقدر ما يمكنه ، ويزيد تمكنه منهم
ويقول على مقدار يقظتهم ، وغفلتهم وجهلهم ، وعلمهم ، واعلم أن القلب كالحصن ، وعلى ذلك
الحصن سور ، وللسور أبواب ، وفيه ثلم (٢) ، وساكنه العقل ، والملائكة تتردد على الحصن ،
وإلى جانبه ربض (٣) فيه

(١) مصائب الأنسان من مكائد الشيطان (٦٩) باختصار ، وذكر ابن القيم رحمه الله هذه العقبات السبع فى تفسير المعوذتين
بأطول من ذلك ، فليراجعه من أراد زيادة التفصيل (٧٣ - ٧٦) .

(٢) جمع ثلمه : وهو موضع الكسر من القدح .

(٣) المكان الذى يؤوى إليه .

الهوى ، والشياطين تختلف إلى ذلك الربض من غير مانع ، والحارس قائم بين أهل الحصن وأهل الربض ، والشياطين لا تزال تدور حول الحصن تطلب غفلة الحارس والعبور من بعض النثم ، فينبغى للحارس أن يعرف جميع أبواب الحصن الذى قد وكل بحفظه وجميع النثم ، وأن لا يفتر عن الحراسة لحظة فإن العدو ما يفتر " .

قال رجل للحسن البصرى : أينام إبليس ؟ قال : لو نام لوجدنا راحة ، وهذا الحصن مستنير بالذكر مشرق بالإيمان ، وفيه مرآة صقيلة يتراءى بها صور كل ما يمر به ، فأول ما يفعل الشيطان فى الربض إكثار الدخان فتسود حيطان الحصن وتصدأ المرأة ، وكمال الفكر يرد الدخان ، وصقل الذكر يجلو المرأة ، وللعو حملات فتارة يحمل فيدخل الحصن فيكر عليه الحارس فيخرج ، وربما دخل فعاث ^(١) ، وربما أقام لغفلة الحارس ، وربما ركدت الريح الطاردة للدخان فتسود حيطان الحصن وتصدأ المرأة فيمر الشيطان ولا يدرى به ، وربما جرح الحارس لغفلة وأسر واستخدم ^(٢).

واعلم أن أول ما يغوى به الشيطان ابن آدم الوسوس التى يوسوس بها إليه ، كما قال تعالى أمراً بالاستعادة بالله عز وجل من وسوسه:

[قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْغِيَةِ وَالنَّاسِ] (الناس)

فإذا غفل القلب عن ذكر الله عز وجل جثم عليه الشيطان واخذ يوسوس إليه بالذنوب والمعاصى ، فإذا ذكر الله عز وجل واستعاذ به انخنس الشيطان وانقبض ، وإذا كره ما وسوس به فإن ذلك محض الإيمان ، عن أبى هريره قال : جاء ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه : إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال : (وقد وجدتموه ؟) قالوا : نعم . قال : (ذلك صريح الإيمان) ^(٣).

(١) عاث : أى أفسد

(٢) تلبس إبليس (٣٧ - ٣٨) باختصار - مكتبة المتنبى .

قال ابن القيم رحمه الله :

" الوسوسة هي مبادئ الإرادة فإن القلب يكون فارغاً من الشر والمعصية فيوسوس إليه ويخطر الذنب بباله فيصوره لنفسه ويمنيه ويشهيه فيصير شهوه ، ويزينها له ويحسنها ويخيلها له في خيال تميل نفسه إليه فتصير إرادة ، ثم لا يزال يمثّل ويخيل ويمنى ويشهى وينسى علمه بضررها ويطوى عنه سوء عاقبتها فيحول بينه وبين مطالعته ، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذبه بها فقط ، وينسى ما وراء ذلك فتصير الأرادة عزيمة جازمه ، فيشتد الحرص عليها من القلب ، فيبعث الجنود في الطلب فيبعث الشيطان معهم مدداً لهم وعوناً ، فإن فتروا حركهم ، وإن ونوا أزعجهم كما قال تعالى :

[أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا] (مريم : ٨٣)

أى تزعجهم إلى المعاصي ازعاجاً كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم ، فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب ، وتنظم شكل الاجتماع بالطف حيله وأتم مكيدته .

فأصل كل معصية وبلاء إنما هي الوسوسة . (١)

فمهما كان العبد مشغولاً بالطاعات وذكر الله عز وجل ، فإنه لا يكون عند ذلك محلاً للوساوس فإذا غفل عن الذكر والطاعة وسوس إليه الشيطان بالمعاصي كما قال ابن القيم رحمه الله : إذا غفل القلب ساعة عن ذكر الله جثم عليه الشيطان وأخذ يعده ويمنيه .

وأختم هذا الفصل بما يستعان به من طاعة الرحمن الرحيم حتى يحفظ العبد نفسه من وساوس الشياطين :

١- الاستعاذة بالله قال الله تعالى : [وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ] (الأعراف : ٢٠١)

(٣) رواه مسلم (١٥٣ / ١) الأيمان ، قال النووي رحمه الله : معناه أستعظماكم الكلام به وهو صريح الأيمان فإن أستعظما هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن أستكمل الأيمان إستكمالاً محققاً وانتفتت عنه الريبه والشكوك - النووي على صحيح مسلم (١٥٤ / ١) .

(١) تفسير المعوذتين لابن القيم (٧١) باختصار وتصرف - السلفيه .

وعن سليمان بن صرد قال : كنت جالساً مع النبي صلى الله عليه وسلم ورجلان يستبان فاحدهما احمر وجهه وانتفخت أوداجه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لذهب عنه ما يجد**) . الحديث (١) .

٢- قراءة المعوذات فقد قال صلى الله عليه وسلم : " **لم يتعوذ الناس بمثلهن** " . (٢)

٣- قراءة أية الكرسي عند النوم كما في حديث أبي هريره فمن قرأها عند نومه لا يزال عليه من الله حافظ لا يقربه شيطان .

٤- قراءة سورة البقرة قال النبي صلى الله عليه وسلم
(**إن البيت الذي فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان**) . (٣)

٥- خاتمة سورة البقرة عن أبي مسعود الانصاري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(**من قرأ الأيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**) . (٤)

٦- " لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير " مائة مرة من قرأها في يوم كانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي .

٧- كثرة ذكر الله عز وجل فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل .

٨- الوضوء والصلاة قال ابن القيم : وهذا أمر تجربته تغنى عن إقامة الدليل عليه .

٩- إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس ، فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأربعة . (١)

(١) رواه البخارى (١٠٠ / ٥١٨ - ٥١٩) الأدب ، ومسلم (١٦ / ١٦٣) البر والصلة ، وابو داود (٤٧٥٩) الأدب ، قال ابن كثير رحمه الله : من لطائف الاستعاذه أنها طهارة الفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث وتطيبب اللهو وهو بتلاوة القرآن وهي استعاذه بالله عز وجل واعتراف له بالقدره وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطن الذى لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذى خلقه ولا يقبل مناعه ولا يدارى باحسان بخلاف العدو من نوع الإنسان كما دلت على ذلك آيات من القرآن (٥٠ / ١) التفسير .

(٢) رواه النسائى (٨ / ٢٥١) الاستعاذه : وأحمد بمعناه (٣ / ٤١٧) وصححه الألبانى .

(٣) رواه مسلم (٦ / ٦٨) صلاة المسافرين بلفظ : أن الشيطان يفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة ، والترمذى (١١ / ١٠) ثواب القرآن بلفظه .

(٤) رواه البخارى (٩ / ٥٠) فضائل القرآن ، ومسلم (٦ / ٩١ - ٩٢) صلاة المسافرين والترمذى (١٠ / ١٢) ثواب القرآن ، وابو داود (١٣٨٤) الصلاة .

(١) تفسير المعوذتين باختصار (٨٢ - ٨٦) وانظر البحر الرائق للمصنف .

صفات المتقين

وبعد أن ذكرنا معنى التقوى وشرفها وطريق الوصول إليها نرى من المفيد كذلك أن نتعرف على أصحاب هذه الرتب العلية ، والدرجات السنية ، حتى لا تدعيها النفوس وهى عارية منها ، وقد يكون العلم بها مما يشحذ الهمم فى طلبها ، وبذل نفائس الأنفاس فى خطبتها وقرانها .

يقول ابن القيم رحمه الله :

واما السابقون المقربون فنستغفر الله الذى لا إله إلا هو أولاً من وصف حالهم وعدم الاتصاف به ، بل ما شممنا له رائحة ، ولكن محبة القوم تحمل على تعرف منزلتهم والعلم بها ، وإن كانت النفوس متخلفة منقطعة عن اللحاق بهم ، ففى معرفة حال القوم فوائد عديده :

منها أن لا يزال المتخلف المسكين مزريراً على نفسه ذاماً لها ، ومنها أن لا يزال منكسر القلب بين يدى ربه تعالى ذليلاً له حقيراً يشهد منازل السابقين وهو فى زمرة المنقطعين ، ويشهد بضائع التجار وهو فى رفقة المحرومين ، ومنها أنه عساه أن تنهض همته يوماً إلى التشبث والتعلق بساقة القوم ولو من بعيد ، ومنها أنه لعله أن يصدق فى الرغبة واللجوء إلى من بيده الخير كله أن يلحقه بالقوم ويهيئه لأعمالهم فيصادف ساعة إجابة لا يسأل الله فيها شيئاً إلا إعطاه ، ومنها أن هذا العلم هو من أشرف علوم العباد ،

وليس بعد علم التوحيد أشرف منه ، وهو لا يناسب إلا النفوس الشريفة ، ولا يناسب النفوس الدنيئة ، فإذا رأى نفسه تناسب هذا العلم وتشتاق إليه وتحبه وتأنس بأقله فليبشر بالخير فقد أهل له ، فليقل لنفسه : يا نفس فقد حصل لك شطر فاحرصى على الشطر الآخر ، ومنها أن العلم بكل حال خيراً من الجهل

ومنها أنه إذا كان العلم بهذا الشأن همه ومطلوبه فلا بد أن ينال منه بحسب استعدادده ولو لحظه ولو بارقة ، ولو أنه يحدث نفسه بالنهضة إليه ، ومنها أنه لعله يجرى منه على لسانه ما ينتفع به غيره بقصده أو بغير قصده

والله لا يضيع مثقال ذرة فعسى أن يرحم بذلك العالم ، وإياك أن تظن أن بمجرد علم هذا الشأن صرت من أهله ، هيهات ما أظهر الفرق بين العلم بوجوه الغنى وهو فقير وبين الغنى بالفعل ، وبين العالم بأسباب الصحة وحدودها وهو سقيم وبين الصحيح بالفعل ، فاسمع الآن وصف القوم وأحضر ذهنك لشأنهم العجيب وخطرهم الجليل ، فإن وجدت من نفسك حركة وهمة إلى التشبه بهم فاحمد الله وادخل فالطريق واضح والباب مفتوح:

إذا أعجبتك خصال امرئ فكأنه تكن مثل ما يعجبك
فليس على الجود والمكرامة إذا جنتها حاجب يعجبك

١ - فمن صفات المتقين أنهم يؤمنون بالغيب إيماناً جازماً:

والغيب هو ما غاب عن حواسنا ما أخبرنا الله عز وجل بوجوده أو أخبرنا به رسوله صلى الله عليه وسلم ، كالإيمان بالله وملائكته والإيمان بالآخرة ، ولا شك أن هذه الصفة أخص صفاتهم ، فإنها التي تدعوهم إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والانقياد الكامل لأمر الله عز وجل ونهيه ، وهذه الصفة هي أول صفة وصفهم الله عز وجل بها في كتابه.

قال الله تعالى : [ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَيَآخِرَةَ هُمْ يُوقِنُونَ] (البقرة : ٢ - ٤)

ومدحهم الله عز وجل كذلك في هذه الآيات الكريمات بأنهم أهل الهداية الحقيقية بالقرآن .

قال القاسمي : قال الناصر في الانتصاف : الهدى يطلق في القرآن على معنيين :

أحدهما : الارشاد وإيضاح سبيل الحق ومنه قوله تعالى :

[وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى] (فصلت : ١٧)

وعلى هذا يكون الهدى للضال باعتبار أنه رشد إلى الحق سواء حصل له الاهتداء أو لا .

والآخر: خلق الله تعالى الاهتداء في قلب العبد ومنه :

[أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْنَدَهُ] (الانعام : ٩٠)

فإذا ثبت وروده على المعنيين فهو في هذه الآية يحتمل أن يراد به المعنيان جميعاً .

وعلى الأول فتخصيص الهدى بالمتقين للتتويه بمدحهم حتى يتبين أنهم هم الذين اهتدوا وانتفعوا

به كما قال تعالى : [إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا] (النازعات : ٤٥)

وقال [إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ] (يس : ١١)

وقد كان صلى الله عليه وسلم منذراً لكل الناس فذكر هؤلاء لأجل أنهم هم الذين انتفعوا بإنذاره ، وهذه الآية نظير آية : [قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ] ^(١) .. (فصلت : ٤٤)

٢- ومن صفاتهم أنهم يعفون ويصفحون :

كما قال تعالى : [وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى] (البقرة : ٢٣٧)

وقد قال عز وجل :

[وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ] (الشورى : ٤٠)

فأخبر الله عز وجل أن من اتصف بهذه الصفة فأجره في ذلك على الله عز وجل كما رغبه الله

عز وجل في مغفرته إذا فعلوا ذلك فقال عز وجل في سورة النور [وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا

أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ] (النور : ٢٢)

وقال تعالى في وصف المتقين [وَالكَافِرِينَ الْغَيْظُ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ

الْمُحْسِنِينَ] (آل عمران : ١٣٤)

(١) محاسن التأويل (٢ / ٣٤) دار الفكر بيروت .

قال العلامة محمد رشيد رضا :

قال الراجز : الغيظ أشد الغضب ، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه ، وفي روح المعاني : أن الغيظ هيجان الطبع عند رؤية ما ينكر ، والفرق بينه وبين الغضب على ما قيل : أن الغضب يتبعه إرادة الانتقام البتة ، ولا كذلك الغيظ .

وقال الزمخشري : كظم الغيظ هو ان يمسك ما في نفسه منه بالصبر ولا يظهر له أثراً ، ويروى عن عائشة أن خادماً لها غاظها فقالت : لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء . [وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ] العفو عن الناس هو التجافى عن ذنب المذنب منهم وترك مؤاخذته مع القدرة عليها ، وتلك مرتبة في ضبط النفس والحكم عليها وكرم المعاملة قل من يتبوأها ،

فالعفو مرتبة قبل مرتبة كظم الغيظ ، إذ ربما يكظم المرء غيظه على حقد وضغينة ، وهناك مرتبة أعلى منها وهي ما أفاده قوله عز وجل : [وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ] فالإحسان وصف من اوصاف المتقين ، ولم يعطفه على ما سبقه من الصفات بل صاغه بهذه الصيغة تمييزاً له بكونه محبوباً عند الله تعالى ويروى أن بعض السلف غاظه غلام له فجاء غيظاً شديداً فهم بالانتقام منه فقال الغلام [وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظَ] فقال : كظمت غيظي ، قال الغلام : [وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ] فقال : عفوت عنك . قال [وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ]

قال : اذهب فأنت حر وجه الله . فهذه الواقعة تبين لك ترتيب المراتب الثلاثة .^(١)

٣- ومن صفاتهم أنهم غير معصومين من الخطايا إلا من عصمه الله عز وجل من الانبياء غير أنهم لا يقارفون الكبائر ، ولا يصرون على الصغائر :

بل كلما وقعوا في صغيرة رجعوا إلى الله بالتوبة والاستغفار والعمل الصالح عملاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم : (اتبع السيئة الحسنة تمحها) .^(١)

(١) تفسير المنار باختصار (٤ / ١٣٤ ، ١٣٥) .

(١) تقدم تخريجه

ودل على هذه الصفة قوله عز وجل : [إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ] (الأعراف : ٢٠١)

قال ابن كثير رحمه الله : يخبر تعالى عن المتقين من عبادة الذين أطاعوه فيما أمر وتركوا ما عنه زجر ، أنهم إذا مسهم - أى : أصابهم - طيف وقرأ الآخرون طائف ، وقد جاء فيه حديث وهما قراءتان مشهورتان فقليل : بمعنى واحد ، وقيل : بينهما فرق ، ومنهم من فسر ذلك بالغضب ، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصدع ونحوه ، ومنهم من فسره بالهم بالذنب ، ومنهم من فسره بإصابة الذنب ، وقوله : [تَذَكَّرُوا] أى : عقاب الله وجزيل ثوابه ووعدته ووعيدته فتابوا واناوبوا ورجعوا إليه من قريب : [فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ] أى : قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه . (٢)

ثم ذكر الله عز وجل ما يقابل هذه الصفة فى المتقين بقوله تعالى :
[وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ] (الإعراف : ٢٠٢)

قال العلامة رشيد رضا رحمه الله : شأن المؤمنين المتقين إذا مسهم طائف من الشيطان لحملهم على محاكاة الجاهلين والخوض معهم وعلى غير ذلك من المعاصى والفساد تذكروا فأبصروا فحذروا وسلموا ، وإن زلوا تابوا واناوبوا ، وأن إخوان الشياطين وهم الجاهلون غير المتقين تتمكن الشياطين من إهوائهم فيمدونهم فى غيهم وفسادهم ،

لأنهم لا يذكرون الله تعالى إذا شعروا فى أنفسهم بالنزوع إلى الشر والباطل والفساد فى الأرض ، ولا يستعينون منه بالله ، وإما لأنهم لا يؤمنون بأن للإنسان شيطانا من الجن يوسوس إليه ويغريه بالشر - ثم لا يقصرون ولا يكفون عن إغوائهم وإفسادهم لذلك يصرون على الشرور والفساد لفقد الوازع النفسى والواعظ الدينى . (١)

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢ / ٢٧٩) .

(١) تفسير المنار (٩ / ٥٥٠) بتصرف .

٤- ومن صفاتهم أنهم يتحرون الصدق فهم أصدق الناس إيماناً وأصدقهم أقوالاً وأعمالاً وهم الذين صدقوا المرسلين

قال تعالى : [وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ] .. (الزمر : ٣٣)

قيل : الذى جاء بالصدق هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : جبريل عليه السلام ، وقال مجاهد : أصحاب القرآن المؤمنون : يجيئون يوم القيامة فيقولون : هذا ما اعطيتمونا بما أمرتمونا.

قال ابن كثير : وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين ، فإن المؤمنين يقولون الحق ويعملون به ، والرسول صلى الله عليه وسلم أولى الناس بالدخول فى هذه الآية على هذا التفسير ، فإنه جاء بالصدق وصدق المرسلين ، وأمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله. (٢)

وقال تعالى : [أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ] (البقرة : ٧٧)

قال القاسمى : [أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا] فى إيمانهم لأنهم حققوا الإيمان القلبى بالأقوال والأفعال ، فلم تغيرهم الأحوال ولم تزلزلهم الأهوال ،

وفيه إشعار بأن من لم يفعل أفعالهم لم يصدق فى دعواه الإيمان [وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ] عن الكفر وسائر الرذائل ، وتكرير الإشاره لزيادة تنويه بشأنهم ، وتوسيط الضمير للإشارة لانحصار التقوى فيهم (١)

وقد رغب النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الخصلة النبيلة والرتبة الجليلة فقال صلى الله عليه وسلم (وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً) . (٢)

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤ / ٥٣) .

(١) تفسير القاسمى (٣ / ٥٤)

٥- ومن صفاتهم أنهم يعظمون شعائر الله

قال الله تعالى: [ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمُ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ] ... (الحج: ٣٢)

قال القرطبي رحمه الله عليه :

قوله تعالى [ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمُ شَعَائِرَ] الشعائر جمع شعيره

وهي كل شئ لله تعالى فيه أمر أشعر به واعلم ، ومنه القوم في الحرب ، أى علامتهم التى يتعارفون بها تسمى شعيره بمعنى المشعورة ، فشعائر الإسلام أعلام دينه ، ولاسيما ما يتعلق بالمناسك ،

وقال قوم : المراد هنا تسمية البدن والاهتمام بأمرها ، والمغالاة بها قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة ، وفيه إشارة لطيفة ، وذلك أن أصل شراء البدن ربما حصول الإجزاء بما دونها فلا يظهر له عمل إلا تعظيم الشرع وهو من تقوى القلوب والله أعلم .

واضاف التقوى الى القلوب لان حقيقة التقوى فى القلب ولهذا قال (ص) فى الحديث الصحيح :
(التقوى ها هنا وأشار الى صدره)^(١)

فالمتقون يعظمون طاعة الله وأمره فيدفعهم ذلك الى طاعته ، ويعظمون كذلك ما نهى الله عنه فيدفعهم ذلك عن معصيته ، وعكس ذلك الاستهانة بالآوامر فلا يؤديها ، وبالنواهي فيقع فيها نسال الله السلامة .

قال انس رضى الله عنه :

" انكم لتعلمون اعمالا هي ادق فى اعينكم من الشعر ، كنا لنعدها على عهد رسول الله من الموبقات " .^(٢)

(٢) رواه البخارى (٥٠٧ / ١٠) الألب ، ومسلم (١٦ / ١٦) البر و الصله ، وابو داود (٤٩٦٨) الألب ، وابن ماجه (٤٦) المقدمه بزيادة فى اوله ، واللفظ لمسلم .

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤٤٤٨ / ٥) باختصار ، والحديث رواه مسلم (١٦ / ١٢٠ - ١٢١) البر والصله ، والترمذى (١٥ / ٨) البر ، وأحمد (٢٧٧٠٢) .

(٢) رواه البخارى (٣٢٩ / ١١) الرقاق .

قال أبو عبد الله : يعنى بذلك المهلكات ، وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : (ان المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفة فقال به هكذا) . (٣)

قال العيني : السبب في ان قلب المؤمن منور فاذا رأى من نفسه ما يخالف ذلك عظم الامر عليه ، والحكمة في التمثيل بالجدل ان غيره من المهلكات قد يحصل منه النجاة بخلاف الجدل اذا سقط عليه فانه لا ينجو عادة . (٤)

٦- ومن صفاتهم انهم يتحرون العدل ويحكمون به ولا يحملهم بغض احد على تركه :

قال الله تعالى : [وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ] (المائدة : ٨)
قال الزمخشري :

لا يحملنكم بغض المشركين على أن تتركوا العدل فتعتدوا عليهم بأن تنتصروا منهم وتتشفوا بما في قلوبكم من الضغائن بارتكاب ما لا يحل لكم من مثلة أو قذف من مثلة أو قذف أو قتل أولاد أو ساء أو نقض عهد أو ما أشبه ذلك [اعدلوا هو أقرب للتقوى] نهاهم أولاً أن تحملهم البغضاء على ترك العدل ، ثم استأنف فصرح لهم بالأمر بالعدل تأكيداً وتشديداً ، ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل وهو قوله [هو أقرب للتقوى] لكونه لطفاً فيها . وفيه تنبيه عظيم على وجب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله إذا كان بهذه الصفة من القوة ، فما الظن بوجوب مع المؤمنين الذين هم أولياؤه واحباؤه (١)

وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير أنه قال (نحلني أبي نحلاً فقالت أمي : لا أرضى حتى عن النعمان بن بشير انه قال : (نحلني أبي نحلاً فقالت أمي : لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه ليشهده على صدقتي فقال :

(٣) رواه البخارى (١٠٢ / ١١) الدعوات ، الترمذى (٣٠٨ / ٩) صفة القيامة .

(٤) نقلاً عن هامش جامع الأصول (٥٠٨ / ١١) .

(١) تفسير الكشاف (٦١٢ / ١) باختصار .

(أكل ولدك نحت مثله ؟) قال : لا . فقال : (اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم) . قال : فرجع أبى فرد تلك الصدقة . (٢)

٧- ومن صفاتهم أنهم يتبعون سبيل الصادقين من الأنبياء والمرسلين وصحابة سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم .

قال الله تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ] (التوبة : ١١٩)

وقد فسر بعض العلماء هذه الآية على أنها تحريض على الصدق وأمر به كابن كثير والقاسمي ، ورجح بعضهم أها حض على التزام طريق الصادقين كالشوكاني ، ونقل عن سعيد بن جبير والضحاك [كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ] أبو بكر وعمر ، وذكر القرطبي وابن جرير القولين ورجح ابن جرير الثانى منها فقال :

والصحيح من التأويل فى ذلك هو التأويل الذى ذكرناه عن نافع (١) والضحاك ، وذلك أن رسوم المصحف كلها مجمعه على [وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ] وعى القراءة التى لا أستجيز لأحد القراءة بخلافها ، وتأويل عبد الله رحمة الله عليه (٢) فى ذلك على قراءته تأويل صحيح غير أن القراءة بخلافها . (٣)

وقال القرطبي : هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المنافقين واختلف فى المراد هنا بالمؤمنين الصادقين على اقوال فقل هو خطاب لمن أمن من أهل الكتاب ، قيل [وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ] أى مع الذين خرجوا مع النبى صلى الله عليه وسلم لا مع المنافقين ، أى كونوا على مذاهب الصادقين وسبيلهم . وقيل هم المهاجرون لقول أبى بكر يوم السقيفة :

إن الله سمانا الصادقين فقال [لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ] (الحشر : ٨)

(٢) رواه البخارى (٢١١ / ٥) الهبه (٢٥٨ / ٥) الشهادات ، ومسلم (٦٧ / ١١) الهبه .

(١) الأثر عن نافع قال : قيل للثلاثة الذين خلفوا : يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين محمد وأصحابه .

(٢) قال ابن جرير : وكان ابن مسعود فيما ذكر عنه يقرأه { وكونوا من الصادقين } ويتأوله إن ذلك نهى من الله عن الكذب .

(٣) جامع البيان فى تفسير القرآن (٤٦ / ١١) دار المعرفة بيروت .

ثم سماكم بالمفلحين فقال : [وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ] (الحشر : ٩)
وقيل : هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم .

قال ابن العربي : وهذا القول هو الحقيقة والغاية التي إليها المنتهى ، فإن هذه الصفة يرتفع بها النفاق في العقيدة والمخالفة في العمل ،

وصاحبها يقال له الصديق كابي بكر وعمر وعثمان ومن دونهم على منازلهم وازمانهم ،
وأما تفسير أبي بكر الصديق فهو الذي يعم الأقوال كلها فغن جميع الصفات فيهم موجودة . (٤)

فلا شك أن من صفات المتقين أنهم ينتهجون منهج الصحابة رضى الله عنهم ، لأنهم أولى الناس بهذه الصفة التي أمرنا الله أن نكون مع أهلها ، فقد شهد الله عز وجل لهم بالصدق ، وشهد لهم رسوله صلى الله عليه وسلم ، فلا يجوز لأحد أن يلزمهم بشئ ، أو يتهمهم بما برأهم الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فالصحابه كلهم عدول ، وظهرت فيهم من علامات الصدق والإيمان واليقين ما يجعل العاقل يقطع بتعدلهم ، فمن تقوى الله عز وجل موالاتهم ومحبتهم ونصرتهم والاحتجاج بجماعهم ، وفهم تقوى الله عز وجل موالاتهم ومحبتهم ونصرتهم والاحتجاج بجماعهم ، وفهم الكتاب والسنة على منهجهم وطريقهم ، وبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم .

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٣١٢٨ / ٤) باختصار .

المتقون يدعون ما لا بأس به حذراً مما به بأس ويتقون الشبهات

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : " لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر ".^(١)

قال الحافظ : المراد بالتقوى وقاية النفس عن الشرك والاعمال السيئة والمواظبه على الأعمال الصالحة ، وقوله " حاك " أى تردد ففيه إشارة أن بعض المؤمنين بلغ كنه الإيمان وحقيقته ، وبعضهم لم يبلغ . وقد أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب التقوى عن أبي الرداء قال : (تمام التقوى أن تتقى الله حتى تترك ما ترى أنه حلال خشية أن يكون حراماً) .^(٢)

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " .^(٣)

ومعنى ذلك أنهم يتركون كل ما يشكون فى حلة فإن الحلال المحض لا يحصل للمؤمن فى قلبه شك ، وغنما تسكن إليه النفس ، ويشبه هذا الحديث

كذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (إن الحلال بين وبينهما أمور مشتبها لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام) .^(١)

(١) رواه البخارى تعليقا مجزوما به (٤٥ / ١) الأيمان ، وروى الترمذى (٢٧٨ / ٩) صفة القيامة ، و ابن ماجه (٤٢١٥) الزهد ، والحاكم (٣١٩ / ٤) عن عطيه السعدى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس " وقال الترمذى : حسن غريب وصح أسناده الحاكم والذهبي وضعفه الألبانى ، وأنظر بلوغ المرام (١٧٨) .

(٢) فتح البارى (٤٨ / ١) باختصار .

(٣) رواه النسائى (٢٣٠ / ٨) أداب القضاء وقال أبو عبد الرحمن : هذا الحديث جيد ، وقال الألبانى : صحيح الأسناد موقوف – يعنى على عبد الله بن مسعود رضى الله عنه – وقد روى هذا الحديث مرفوعاً عن الحسن بن على بن أبى طالب خرجه أحمد والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم وصححه الترمذى وهو فى جامع العلوم الحديث الحادى عشر وأنظر كلام بن رجب رحمه الله (١٠١ – ١٠٢) .

(١) رواه البخارى (١٢٦ / ١) الأيمان ، ومسلم (٢٧١١) المساقاه والمزارعه ، وأبو داود (٢٣١٣) البيوع ، والترمذى (٥ / ١٨٩ – ١٩٩) البيوع ، وابن ماجه (٣٩٨٤) الفتن ، والدرامى (٢ / ٢٤٥) ، وأحمد (٤ / ٢٦٩) .

فالمتقون يتورعون عن الشبهات وعما يرتابون فيه ما ليس حلالاً بينا ، وذلك أدعى أن يتورعوا عن الحرام البين ، ومن اجتراً على الشبهة اجتراً كذلك على الحرام ، ففي رواية الصحيحين : (فمن ترك ما يشتبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك) يعنى : أن ترك الإثم مع اشتباهه عليه فهو أولى بتركه إذا استبان أنه إثم .

قال ابن رجب رحمه الله : وههنا أمر ينبغى التفتن له وهو أن التدقيق فى التوقف عن الشبهات إنما يصلح لمن استقامت أحواله كلها وتشابهت أعماله فى التوقف والورع ، فأما من يقع فى انتهاك المحرمات الظاهره ثم يريد أن يتورع عن شئ من دقاعق الشبهة فإنه لا يحتمل له ذلك بل ينكر عليه ، كما قال ابن عمر لمن سأله عن دم البعوض من أهل العراق : يسألوننى عن دم البعوض وقد قتلوا الحسين وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (هما ريحانتى من الدنيا) .^(٢)

وسأل رجل بشر بن الحرث عن رجل له زوجه وامه تأمره بطلاقها :

فقال إن كان بر أمه فى كل شئ ولم يبق من برها إلا طلاق زوجته فليفعل ، وإن كان يبرها بطلاق زوجته ثم يقوم بعد ذلك يشتري بقلأ ويشترط الخوصة - يعنى التى تربط بها حزمة لبقل - فقال أحمد : إيش هذه المسائل ؟ قيل : إن إبراهيم بن أبى نعيم يفعل ذلك . فقال أحمد : إن كان إبراهيم بن أبى نعيم فنعلم ، هذا يشبه ذاك ، وغنما أنكر هذه المسائل ممن لا يشبه حاله ، وأما أهل التدقيق فى الورع فيشبه حالهم هذا ، وقد كان الإمام أحمد نفسه يستعمل فى نفسه هذا الورع فإنه أمر من يشتري له سمناً فجاء على ورقة فأمر برد إلى البائع .^(١)

(٢) رواه البخارى (٩٥ / ٧) فضائل الصحابه ، والترمذى (١٣ / ١٩٣) المناقب ، قال ابن الأثير : (الريحان والريحانه) الرزق والراحه ، ويسمى الولد ريحان وريحانه لذلك .
(١) جامع العلوم والحكم (١٠٣ - ١٠٤) باختصار .

ثمرات التقوى

ونختم هذا البحث المعطار بذكر ثمرات التقوى العاجلة والاجلة نسأل الله سعادة الأولى والأخرة فالتقوى هي أعظم سبب للسعادة في الدنيا والأخرة ، بل لا سعادة بدونها ، لأن مدار التقوى على معرفة الله عز وجل معرفة تشغل العبد بطاعته وذكره وشكره ، وهذه من سعادة النفوس ، وما يترتب على ذلك من محبة الله عز وجل والرضا به وحسن التوكل عليه .

سعادة أعظم من السعادة الأولى ، فالمتقون يسعدون بالطاعة وثمارها في الدنيا ، وشاهد هذه السعادة في نفس العبد أنه إذا وقع في معصية الله عز وجل لضعف وازع التقوى كم يجد من حرج في صدره وضيق ووحشه بينه وبين الله عز وجل وبين عباد الله المؤمنين ، فلو حصلت له الدنيا بحذافيرها لم تعوضه هذه الوحشة .

يقول ابن القيم رحمه الله واصفاً من ذاق شيئاً من سعادة التقوى ثم حرم ذلك :
 " ومن ذاق شيئاً من ذلك طريقاً موصلةً إلى الله ثم تركها واقتل على إرادته وراحاته وشهواته ولذاته وقع في آثار المعاصب ، وأودع قلبه سجون المضايق ، وعذب في حياته عذاباً لم يعذب به احد من العالمين ، فحياته عجز وغم وحزن ، وموته كدر وحسره ، ومعاده أسف وندامه ، قد فرط عليه أمره وشتت عليه شمله ، وأحضر نفسه الغموم والاحزان ، فلا لذة الجاهلين ، ولا راحة العارفين ، يستغيث فلا يغاث ، ويشتكى فلا يشتكى ، فقد ترحلت أفراحه وسروره مدبرة ، واقبلت الامة وأحزانه وحسراته ، فقد أبدل بأنسه وحشه ، ويعزه ذلاً ، وبغناه فقراً ، وبجمعيته تشتتاً ، وابعده فلم يظفر بقربهم ، وأبدلوه مكان الأنس إيحاشاً ذلك بأنه عرف طريقه إلى الله ثم تركها وناكب عنها مكباً على وجهه ، فأبصر ثم عمى ، وعرف ثم انكر ، واقتل ثم أدبر ، ودعى فما أجاب وفتح له فولى ظهره للباب ، وقد ترك طريق مولاه ، واقتل بحليته على هواه التوحيد وميادين الأنس ورياض المحبه ،

وموائد القرب قد انحط بسبب إعراضه عن إلهه الحق إلى أسفل سافلين ، وحصل فى عداد الهالكين ، فنار الحجاب تطلع كل وقت على فؤاده ، وإعراض الكون عنه إذا أعرض عنه مولاه حائل بينه وبين مراده " .^(١)

إلى آخر ما ذكره رحمه الله فلا يستطيل ما ذكرناه والله يعصمنا من الزلل ويمن علينا بصالح القول والعمل ، وكما رزقنا محبة الصالحين نساله تعالى أن يرزقنا سلوك طريقهم وذوق حلاوة مواجيدهم ، ونعوذ به من السلب بعد العطاء ، ومن الحور بعد الكور ، وفى حدائق التقوى ننزه قلوبنا وجوارحنا برؤية ثمرات التقوى وبشارات المتقين ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم

(١) طريق الهجرتين (١٨٠) السلفيه .

ثمرات التقوى العاجلة

١ - المخرج من كل ضيق والرزق من حيث لا يحتسب :

قال تعالى : [وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ] (الطلاق : ٢-٣)

عن ابن عباس رضى الله عنه : يجعل له مخرجاً : ينجيه من كل كرب فى الدنيا والآخرة
وقيل : المخرج هو أن يقنعه الله بما رزقه على صالح.

وقال الربيع بن خثيم : يجعل له مخرجاً : من كل شيء يجعل له مخرجاً من عقوبة أهل البدع
ويرزقه اجنة من حيث لا يحتسب .

وقيل : ومن يتق الله فى الرزق بقطع العلائق يجعل له مخرجاً بالكفاية .

وقال عمر بن عثمان الصدفى : ومن يتق الله فيقف عند حدوده ويتجنب معاصيه يخرج من
الحرام إلى الحلال ، ومن يضيق إلى السعة ، ومن النار إلى الجنة ، ويرزقه من حيث لا
يحتسب من حيث لا يرجو . وقال ابن عيينه : هو البركة فى الرزق .
وقال أبو سعيد الخدرى : ومن يبرأ من حوله وقوته بالرجوع إلى الله يجعل له مخرجاً مما كلفه
بالمعونة له . (١)

٢ - السهولة واليسر فى كل أمر :

قال الله تعالى [وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا] (الطلاق : ٤)

قال مقاتل : ومن يتق الله فى اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسراً فى توفيقه للطاعة . (٢)

(١) باختصار من الجامع لأحكام القرآن (٨ / ٦٦٣٨ ، ٦٦٣٩) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٨ / ٦٦٤٤)

قال سيد قطب رحمه الله : واليسر فى الأمر غاية ما يرجوه الإنسان ، وإنها لنعمة كبرى أن يجعل الله الأمور لعبده من عباده فلا عنت ولا مشقة ولا عسر ولا ضيقة يأخذ الأمور بيسر فى شعوره وتقديره ، وينالها بيسر فى حركته وعمله ، ويرضاها بيسر فى حصاياتها ونتيجتها ويعيش من هذا ، فى يسر رضى ندى حتى يلقى الله .^(١)

٣- تيسير تعلم العلم النافع :

قال الله تعالى : [وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ] (البقرة : ٢٨٢)

قال العلامة محمد رشيد رضا : أى اتقوا الله فى جميع ما أمركم به ونهاكم عنه وهو يعلمكم ما فيه قيام مصالحكم وحفظ أموالكم وتقوية رابطتكم ، فغنكم لولا هدايته لا تعلمون ذلك ، وو سبحانه العليم بكل شئ . فإذا شرع شيئاً فإنما يشرعه عن علم محيط بأسباب درء المفسد وجلب المصالح لمن تبع شرعه ، وكرر لفظ الجلالة لكمال التذكير وقوة التأثير .^(٢)

وقال البيضاوى : كرر لفظ الجلالة فى الجمل الثلاث لاستقلالها ، فالأولى حث على التقوى ، والثانية وعد بإنعامه ، والثالثة تعظيم بشأنه ، ولأنه أدخل فى التعظيم من الكناية .

٤- إطلاق نور البصيرة :

قال الله تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً] . (الانفال : ٢٩)

(١) فى ظلال القرآن (٦ / ٣٦٠٢) .

(٢) أستدل الصوفيه بهذه الآية الكريمة على ما يزعمون بحصول العلم اللدنى ، وأن ما يأتونه من رياضات وأوراد يكفى فى حصول ذلك العلم دون أن يأخذوا بأسباب العلم من طلبه وتعلمه . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : " إنما العلم بالتعلم " ذكره البخارى تعليقا مجزوماً به وسيأتى تخريجه إن شاء الله ، ويقولون فخراً : أخذت منكم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت . ويقول بعضهم : أنتم تأخذون عن عبد الرزاق ونحن نأخذ عن الواحد الخلاق . وهذا لا شك فيه من جهلهم بالدين وفتح أبواب الشياطين ، فيدعى من شاء ما يشاء ويقول : حدثنى قلبى عن ربى . ولا شك أن من يوحى إليه بتكاليف شرعية يثبت له بذلك مرتبة النبوه ، ورسولنا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ولفظ الآية لا يساعده على دعواهم فلم يقل الله عز وجل : واتقوا الله يعلمكم الله وإلا كان مفيداً لما قالوه . والعطف يقتضى المغايره ، والصحيح أن يقال : بيسر الله عز وجل للعبد أسباب التعلم إذا اتقى الله عز وجل ، ويدل على ذلك أثر من عمل لما علم ورثة الله علم ما لم يعلم ومما يوضح ذلك الثمرة الرابعة .

قال العلامة محمد رشيد رضا : الفرقان فى اللغة هو الصبح الذى يفرق بين الليل والنهار ، ويسمى القرآن فرقاناً لأنه يفرق بين الحق والباطل ، وتقوى الله فى الأمور كلها تعطى صاحبها نوراً يفرق به بين دقائق الشبهات التى لا يعملهن كثير من الناس ، فهى تقيده علماً خاصاً لم يكن ليهتدى إليه لولاها ، وهذا العلم هو غير العلم الذى يتوقف على التلقين كالشرع أصوله وفروعه ، وهو مالا تتحقق التقوى بدونه ، لأنها عبارة عن العمل فعلاً وتركاً بعلم ، فالعلم الذى هو أصل التقوى وسببها لا يكون إلا بالتعلم كما ورد فى الحديث: (**العلم بالتعلم**)^(١)

وإذا علمت أن التقوى عمل يتوقف على علم ، وأن هذا العلم لا بد أن يؤخذ بالتعلم والتلقى ، وإن العلم بالعلم من اسباب المزيد فيه ، وخروجه من مضيق الابهام والإجمال إلى فضاء الجلاء والتفصيل ، فهمت المراد بالفرقان على عمومه ، وعملت أن أدعياء التصوف الجاهلين لا حظ لهم من ذلك العلم الأول ، ولا من هذه التقوى التى هى أثره ، ولا من العلم الأخير الذى هو أثر العلم والتقوى جميعاً .^(٢)

٥ - محبه الله عز وجل ومحبة ملائكته والقبول فى الأرض :

قال الله تعالى : [**بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**] (آل عمران : ٧٦)

عن أبى هريره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (**إذا أحب العبد قال لجبريل : قد أحببت فلاناً فأحبه . فيحبه جبريل عليه السلام ، ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض**) .^(١)

(١) قال الحافظ : " إنما العلم بالتعلم " هو حديث مرفوع أيضاً أورده ابن أبى عاصم والطبرانى من حديث معاوية - ثم ذكر - وإسناده حسن إلا أن فيه مبهماً اعتضد بمجيئه من وجه آخر (فتح الباري ١١ / ١٦١) وقال الألبانى : رواه الخطيب فى تاريخه (٢٧ / ٩) عن أبى هريره مرفوعاً ومحسنأ وأنظر الصحيحة رقم (٣٤٢) .

(٢) باختصار وتصرف من تفسير المنار (٣ / ١٢٩ - ١٣١) .

(١) البخارى (١٠ / ٤٦١) الأدب ، ورواه مسلم (١٦ / ١٨٣ - ١٨٤) البر والصلة ، ومالك فى الموطأ (٢ / ٩٥٣) الشعر .

وكتب أبو الدرداء إلى مسلمة بن خالد : سلام عليك أما بعد ، فإن العبد إذا عمل بطاعة الله أحبه الله ، فإذا أحبه الله حبه إلى عباده .

وعن هرم بن حيان قال : ما أقبل عبد بقلبه عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين عليه حتى يرزقهم مودته .

فقد وعد الله عز وجل عبادة المؤمنين الذين يداومون على الأعمال الصالحة بهذه المودة والمحبة كما قال تعالى : [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا] ... (مريم : ٩٦)

٦- نصره الله عز وجل وتأييده وتسديده :

وهي المعية المقصودة يقول الله تعالى : [وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ] (البقرة : ١٩٤)

فهذه المعية هي معية التأييد والنصر والتسديد وهي معية الله عز وجل لأنبيائه ومعيته للمتقين والصابرين .

قال ابن رجب رحمه الله : وهذه المعية الخاصة بالمتقين غير المعية العامة المذكورة في قوله تعالى : [وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ] (الحديد : ٤) وقوله : [وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ] (النساء : ١٠٨)

فإن المعية الخاصة تقتضي النصر والتأييد والحفظ والإعانة كما قال تعالى لموسى عليه السلام وهارون : [قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى] ^(١) (طه : ٤٦) والمعية العامة تستوجب من العبد الحذر والخوف ومراقبة ، الله عز وجل . وأما الخاصة فتستوجب من العبد الأتس بالله عز وجل والثقة بنصره وتأييده .

(١) نور الأفتباس في مشكاة وصية النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس (٤١) .

قال قتادة : ومن يتق الله يكن معه ، ومن يكن بالله معه فمعه الفئه التي لا تغلب والحارس الذى لا ينام ، والهادى الذى لا يضل .

وكتب بعض السلف إلى أخيه: أما بعد إن كان الله معك فمن تخاف وإن كان عليك فمن ترجو .

٧- البركات من السماء والأرض :

قال تعالى : [وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ] (الاعراف : ٩٦)

قال القاسمى رحمه الله : (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى) أى : القرى المهلكة (آمَنُوا) أى : بالله ورسلمهم (وَاتَّقَوْا) أى : الكفر والمعاصى (لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

أى : لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب مكان ما أصابهم من فنون العقوبات من السماء وبعضها من الأرض . (٢)

وبدل على هذا قوله عز وجل : [وَأَلَّوْا اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا] .. (الجن : ١٦)

يقول ابن القيم رحمه الله : فإذا أراد الله أن يطهر الأرض من الظلمه والخونه والفجرة ، يخرج عبداً من عباده من أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم فيملأ الأرض قسطاً كما ملئت جوراً ، ويقتل المسيح ايهود والنصارى ، ويقيم الدين الذى بعث الله به رسوله ، وتخرج الأرض بركتها ، وتعود كما كانت ، حتى إن العصاة من الناس ليأكلون من الرمانة ويستظلون بقحفها ، ويكون العنقود من العنب وقر بعير ، ولبن اللقحة الواحدة يكفى الفئام من الناس ، وهذا لأن الأرض لما طهرت من المعاصى ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى الت محقتها الذنوب والكفر . (١)

(٢) محاسن التأويل (٧ / ٢٢١) باختصار .

(١) الجواب الكافى (٦٧) باختصار - دار عمر بن الخطاب .

فانظر إلى بركات التقوى ، واعلم أن ما نحن فيه من قلة البركة ونقص الثمار وكثرة الأفات والأمراض إنما هو نتيجة حتمية لضعف وازع التقوى وكثرة المعاصي كما قال الله تعالى : [**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**] (الروم : ٤١) .

٨- البشرى وهى الرؤيا الصالحة وثناء الخلق ومحبتهم .

قال تعالى : [**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ**] (يونس : ٦٢-٦٤)

قال الزمخشري رحمه الله :

والبشرى فى الدنيا ما بشر الله به المؤمنين المتقين فى غير مكان من كتابه وعن النبى صلى الله عليه وسلم : (**هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له**) . (٢)

وعنه صلى الله عليه وسلم : (**ذهبت النبوة وبقيت المبشرات**) (١) وقيل : هى محبة الناس له والذكر الحسن . وعن أبى ذر قال : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس . فقال : (**تلك عاجل بشرى المؤمنين**) . (٢)

ومن خطأ : لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة قال الله تعالى : [**تَنْزِيلٌ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ**] (فصلت : ٣٠)

(٢) رواه الترمذى (١٢٨ / ٩) أبواب الرؤيه وقال : هذا حديث حسن ، ومالك فى الموطأ (٩٥٨ / ٢) الرؤيا ، والحاكم (٤ / ٣٩١) الرؤيا وصححه ووافقه الذهبى .

(١) رواه البخارى (٣٧٥ / ١٢) التعبير ، والترمذى (١٢٧ / ٩) أبواب الرؤيا عن أنس

(٢) رواه مسلم (١٨٩ / ١٦) البر والصله ، وأحمد (٢٥٦ / ٥ - ١٥٧ - ١٦٨) ، وابن ماجه (٤٢٢٥) الزهد ، وقال العلماء : معناه هذا البشرى المعجله له بالخير وهى الدليل على رضا الله تعالى ومحبتة له فيحببه إلى الخلق كما سبق فى الحديث ثم يوضع له القبول فى الأرض هذا كله إذا حمده الناس من غير تعرض منه لمحامدهم وإلا فاتعرض مذموم - شرح النووى على صحيح مسلم (١٨٩ / ١٦) .

وأما البشرى فى الآخرة فتلقى الملائكة إياهم مبشرين بالفوز والكرامة ، وما يرون من بياض وجوههم وإعطاء الصحائف بأيمانهم وما يقرعون منها وغير ذلك من البشارات .^(٣)

٩ - الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم

قال تعالى : [وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ] (آل عمران : ١٢٠)

قال ابن كثير رحمه الله : يرشدهم تعالى إلى السلامه من شر الأشرار وكيد الفجار باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذى هو محيط بأعدائهم ، فلا حول ولا قوة لهم إلا به ، وهو الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .^(٤)

وقال الزمخشري رحمه الله : وإن تصبروا على عدواتهم وتتقوا ما نهيتم عنه من موالاتهم ، أو إن تصبروا على التكليف الدين ومشاقة ، وتتقوا الله فى اجتناب محارمه ، وكنتم فى كنف الله فلا يضركم كيدهم .

وهذا تعليم من الله وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى ، وقد قال الحكماء : إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلاً فى نفسك (إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ) من الصبر والتقوى وغيرهما محيط ففاعل بكم ما أنتم أهله .^(١)

١٠ - حفظ الذرية الضعاف بعناية الله عز وجل

قال الله تعالى : [وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا] (النساء : ٩)

(٣) الكشف (٣٥٦ / ٢) باختصار

(٤) تفسير القرآن العظيم (١ / ٣٢٩) .

(١) الكشف (٤٠٨ / ١)

قال القاسمي رحمه الله :

وفي الآية أشاره إلي أرشاد الأباء الذين يخشون ترك ذرية ضعاف بالتقوى في سائر شئونهم حتي تحفظ أبنائهم وتغاث بالعنايه منه تعالى ، ويكون في إشعارها تهديد بضياح أولادهم إن فقدوا تقوى الله ، وإشاره إلي أن تقوى الأصول تحفظ الفروع ، وأن الرجال

الصالحين يحفظون في ذريتهم الضعاف كما في الآية :

[وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا] (الكهف : ٨٢)

فإن الغلامين حفظا ببركة صلاح أبيهما في أنفسهما ومالهما . (٢)

قال محمد بن المنكدر :

إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده وقريته التي هو فيها والدويرات التي حولها فما يزالون في حفظ الله وستره .

وقال ابن المسيب لابنه : يا بني إني لأزيد في صلاتي من أجلك رجاء أن أحفظ وتلا هذه الآية : [وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا] (الكهف : ٨٢)

١١ - سبب لقبول الأعمال التي بها سعادة العباد في الدنيا والآخرة

قال تعالى : [قَالَ إِنَّمَا يَنْتَقِلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ] (المائدة : ٢٧)

قال الزمخشري رحمه الله :

لما كان الحسد لآخيه على تقبل قربانه هو الذي حمله على توعده لآخيه بالقتل قال له : إنما أتيت من قبل نفسك لآنسلاخها من لباس التقوى لا من قبلي ، فلم تقتلني ، ومالك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التي هي السبب في القبول ، فأجابه بكلام حكيم جامع لمعاني الخير وفيه دليل على أن الله تعالى لا يقبل طاعة إلا من مؤمن متق ، فما أنعاه على أكثر العاملين أعمالهم .

وعن عامر بن عبد الله أنه بكى حين حضرته الوفاة فقيل له : ما يبكيك فقد كنت وكنت ؟ قال :
إني أسمع الله يقول : (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) . (١)

وقال الغزالي رحمه الله :

تأمل أصلاً واحداً وهو أنه هب أنك قد تعبت جميع عمرك في العبادة ، وكابدت حتى حصل لك
ما تمنيت ، أليس الشأن كله في القبول ، ولقد عملت أن الله تعالى يقول (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ
الْمُتَّقِينَ) فرجع الأمر كله الى التقوى . (٢)

وقال بعض السلف : لو أعلم أن الله يقبل مني سجدة بالليل وسجدة بالنهار لطرت شوقاً إلى
الموت ، إن الله عز وجل يقول : (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) .

١٢ - سبب النجاة من عذاب الدنيا

قال تعالى : [وَأَمَّا تُمُودٌ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ
الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ]
..... (فصلت : ١٧ - ١٨)

قال ابن كثير رحمه الله :

(وَأَمَّا تُمُودٌ فَهَدَيْنَاهُمْ) قال ابن عباس رضى الله عنهما وأبو العالية وسعيد بن جبير
وقتادة والسدى وابن زيد : بينا لهم ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه الصلاة
والسلام ، فخالفوه وكذبوه وعقروا ناقة الله تعالى التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم
(فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ) أى : بعثنا عليهم صيحة ورجفة وذلاً وعذاباً ونكالاً
(بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) أى : من التكذيب والجحود ، (وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا) أى : من
بين أظهرهم لم يمسهم سوء ولا نالهم من ذلك ضرر ، بل نجاهم الله تعالى مع نبيهم صالح عليه
السلام بإيمانهم وتقواهم لله عز وجل . (١)

(١) الكشاف (١ / ٦٢٤) .

(٢) منهاج العابدين (٧٢) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤ / ٩٥) .

١٣- ما يجعله الله لهم من الشرف وهيبة الخلق وحلاوة المعرفة والإيمان :

قال ابن رجب رحمة الله :

ومنها (أى : مما يرغب فى شرف الآخرة) وليس هو قدرة العبد ولكنه من فضل الله ورحمته ما يعوض الله عباده العارفين به الزاهدين فيما يفنى من المال والشرف مما يجعله الله لهم فى الدنيا من شرف التقوى وهيبة الخلق لهم فى الظاهر ، ومن حلاوة المعرفة والإيمان والطاعة فى الباطن ، وهى الحياة الطيبة التى وعدّها الله لمن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، وهذه الحياة الطيبة لم يذقها الملوك فى الدنيا ولا أهل الرياسات والحرص على الشرف .

كان حجاج بن أرطاة يقول : قتلنى حب الشرف ، فقال له سوار لو اتقيت الله شرفت . وفى هذا المعنى قيل :

ألا إنما التقوى هى العز والكرم
وحبك للدنيا هو الذل والسقم
وليس على عبد تقى نقيصة إذا
حقق التقوى وإن حاك أو حجم

وقال صالح الباجى : الطاعة إمرة ، والمطيع لله أمير مؤمر على الأمراء ، ألا ترى هيئته فى صدورهم إن قال قبلوا ، وإن أمر أطاعوا ، ثم يقول : يحق لمن أحسن خدمتك ومننت عليه بمحبتك أن تذلل له الجبابرة حتى يهابوه لهيبته فى صدورهم من هيبتك فى قلبه ، وكل الخير من عندك بأوليائك .

وقال ذا النون المصرى : من أكرم وأعز ممن انقطع إلى من ملك الأشياء بيده .
كان مالك بن أنس يهاب أن يسأل حتى قال فيه القائل :

يدع الجواب ولا يرجع هيبة
نور الوفاة وعز سلطان التقى
والسائلون نواكس الأذقان
فهو المهيبة وليس ذا سلطان^(١)

(١) باختصار من شرح حديث (ما ذئبان جائعان) لابن رجب الحنبلى (٢١-٢٢) - دار الفتح .

١٤ - الذرة من صاحب تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين :

قال أبو الدرداء رضى الله عنه : يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم وكيف يغبنون به قيام الحمقى وصومهم ، والذرة من صاحب تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين وهذا من جواهر الكلام وأدله على كمال فقه الصحابة وتقدمهم على من بعدهم فى كل خير رضى الله عنهم .

فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير الى الله بقلبه لا ببدنه والتقوى فى الحقيقة تقوى الروح لا تقوى الجوارح .

فالكيس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة وتجريد القصد وصحة النية مع العمل القليل ، أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق ، فإن العزيمة والمحبة تذهب المشقة وتطيب السير والتقدم والسبق الى الله سبحانه إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة فيتقدم صاحب الهمة مع سكونه صاحب العمل الكثير بمراحل ، فإن ساواه فى همته تقدم عليه بعمله .^(١)

فالأعمال تتفاضل بحسب ما فى قلوب أصحابها من إيمان وتقوى لله عز وجل ، وإن الرجلين ليكونان فى صف واحد وخلف إمام واحد يكبران بتكبيره ويسلمان بتسليمه وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض ، وكم من قائم محروم وكم من نائم مرحوم ، هذا قام وقلبه فاجر وهذا نام وقلبه عامر فالسير سير القلوب والسبق سبق الهمم .

تسير رويداً وتجيئ فى الأول

من لى بمثل سيرك المدلل

(١) الفوائد (١٨٦ - ١٨٧) لابن القيم باختصار .

الثمرات الأجله

١ - تكفير السيئات وهو سبب النجاة من النار ، وعظم الأجر وهو سبب الفوز بدرجات الجنة :

قال تعالى : [وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا] (الطلاق : ٥)

قال ابن كثير رحمه الله : أى : يذهب عنهم المحذور ، ويجزل لهم الثواب على العمل اليسير . (١)

وقال ابن جرير رحمه الله : ومن يخف الله فيتقه باجتناب معاصيه وأداء فرائضه يمحو الله عنه ذنوبه وسيئات أعماله (وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) يقول ويجزل له الثواب على عمله ذلك وتقواه ، ومن إعظامه له الأجر أن يدخله جنته فيخلده فيها . (٢)

وقال تعالى : [وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ] (المائدة : ٦٥)
ولا يصدر عن النار بعد ورودها إلا المتقون قال الله تعالى : [وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثْيًا] (مريم ٧١ - ٧٢)

٢ - عز الفوقية فوق الخلق يوم القيامة :

قال الله تعالى : [زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] (البقرة : ٢١٢)

(١) تفسير القرآن العظيم (٤ / ٣٨٢) .

(٢) جامع البيان فى تفسير القرآن (١٢ / ٩٣) .

قال القاسمي رحمه الله : (زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) حتى بدلوا النعمة (الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) لحضورها فألهتهم عن رغائب الآخرة .

قال العدالي : ففي ضمنه إشعار بأن استحسان بهجة الدنيا كفر ما ، من حيث إن نظر العقل والإيمان يبصر طيبتها ويشهر جيفتها فلا يغتر بزينتها وهي أفة الخلق في انقطاعهم عن الحق ، فأبهم تعالى المزين في هذه الآية ليشمل أدنى التزيين الواقع على لسان الشيطان . وأخفى التزيين الذي يكون من استدراج الله كما في قوله تعالى : [كَذَلِكَ زِينًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ] (الأنعام : ١٠٨)

قوله (وَيَسْخَرُونَ) أى : يهزأون (مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) وهذا كما قال تعالى : [إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ] (المطففين : ٢٩ - ٣٠)

(وَالَّذِينَ اتَّقَوْا) وهم المؤمنون وإنمات ذكروا بعنوان التقوى لحضهم عليها ، وإيداناً بترتيب الحكم عليها (فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) لأنهم في عليين وهم في أسفل سافلين ، أو لأنهم يتناولون عليهم في الآخرة فيسخرون منهم كما سخروا منهم في الدنيا ، كما قال تعالى : [قَالِ يَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ] (المطففين : ٣٤ - ٣٥)

ولذا قال الراجزي : يحتمل قوله تعالى (فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) وجهين :

أحدهما : أن حال المؤمنين في الآخرة أعلى من حال الكفار في الدنيا .

والثاني : أن المؤمنين في الآخرة في الغرفات ، والكفار في الدرك الأسفل من النار ^(١) . انتهى .

(١) محاسن التأويل (٣ / ١٨٢ : ١٨٥) باختصار .

٣- ميراث الجنة فهم أحق الناس بها وأهلها ، بل ما اعد الله الجنة إلا لأصحاب هذه الرتبة العلية والجوهرة البهية

قال تعالى : [تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا] (مريم : ٦٣)
فهم الورثة الشرعيون لجنة الله عز وجل .

قال الزمخشري رحمه الله : (نُورِثُ) وقرئ (نُورِثُ) أستعارة أى : نبقى عليه الجنة
كما نبقى على الوارث مال المورث ، ولأن الانتقاء يلقون ربهم يوم القيامة قد انقطعت أعمالهم
وثمراتها باقية وهى الجنة ، فإذا أدخلهم الجنة فقد أورثهم من تقواهم كما يورث المال من
المتوفى ، وقيل أورثوا من الجنة المساكن التى كانت لأهل النار لو أطاعوا ^(١)
وقال تعالى : [وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ] .. (آل عمران :
١٣٣)

وقال تعالى : [إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ] (القلم : ٣٤)

٤- وهم لا يذهبون الى الجنة سيرا على أقدامهم بل يحشرون اليها ركباناً :

مع أن الله عز وجل يقرب اليهم الجنة تحية لهم ودفعاً لمشتقهم كما قال تعالى :
[وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ] (ق : ٣١)
وقال تعالى : [يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا] (مريم : ٨٥)

قال ابن كثير رحمه الله :

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه فى الدار الدنيا ، واتبعوا رسله ، وصدقوهم فيما
أخبروا ، وأطاعواهم فيما أمروهم به ، وانتهوا عما زجروهم ، انه يحشرهم يوم القيامة
وفداً اليه ، والوفد هم القادمون ركباناً ، ومنه الوفود ، وركوبهم على نجائب من نور من
مراكب الدار الآخرة وهم قادمون على خير موفود إليه الى دار كرامته ورضوانه . ^(٢)

(١) الكشاف (٢٨ / ٣) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣ / ١٣٧) .

وقال الزمخشري رحمة الله :

ذكر المتقون بلفظ التبجيل ، وهو أنهم يجمعون إلى ربهم الذي غمرهم برحمته وخصهم برضوانه وكرامته ، كما يفد الوفاة على الملوك منتظرين للكرامة عندهم ، وعن علي رضي الله عنه : ما يحشرون والله على أرجلهم ولكنهم على نوق رجالها ذهب ، وعلى نجائب سروجها ياقوت . (١)

٥- وهم لا يدخلون أدنى درجاتها بل يفوزون فيها بأعلى الدرجات وأفضل النعيم نسأل الله من فضله العظيم

قال تعالى : [إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَقَازًا] (الأنبا : ٣١)

وقال تعالى : [هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ] (ص : ٤٩) والمآب هو المرجع والمنقلب ، ثم فصل ذلك عز وجل فقال تعالى : [جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَحَنَةٍ لَّهُمُ الْبُؤَابُ (٥٠) مُتَكِنِينَ فِيهَا يُدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَثْرَابٍ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ] (ص : ٥٠ - ٥٤)

وبين الله عز وجل قربهم من الحضرة واللقاء والرؤية والبهاء . فقال عز وجل : [إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ] (القمر : ٥٤ - ٥٥)

قال القرطبي : (فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ) أى : مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم ، وهو الجنة (عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ) أى : يقدر على ما يشاء وعند هاهنا عندية القربة والزلفة والمكانة والرتبة والكرامة والمنزلة . (٢)

(١) الكشف (٣ / ٤٢) وأثر على رضي الله عنه أخرجه ابن أبي شيبة ، وعبد الله بن أحمد في زيادات المسند ، والطبري وابن أبي حاتم من رواية عبد الرحمن بن أسحق بن النعمان بن سعد بن علي نحوه ، وأخرجه ابن أبي داود - في كتاب البعث من هذا الوجه مرفوعاً ، ورواه ابن عدي عن حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً أيضاً .
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧ / ٦٣٢٠) .

وقال الزمخشري : (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ) في مكان مرضى ، وقرئ في مقاعد صدق عند
ملكك مقتدر مقربين عند ملك مبهم أمره في الملك والافتدار ، فلا شيء إلا وهو تحت ملكه
وقدرته ، فأى منزلة أكرم من تلك المنزلة وأجمع للغبطة كلها والسعادة بأسرها ^(١) ولا عجب
في ذلك فقد جمع الله عز وجل للمتقين كل نعيم الآخرة فقال تعالى : [وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ
لِلْمُتَّقِينَ] (الزخرف : ٣٥)
وقال تعالى : [وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ] (القصص : ٨٣)
ووصف دارهم فقال عز وجل : [وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ] (النحل : ٣٠)

٦- وهى تجمع بين المتحابين من أهلها حين تنقلب كل صداقة
ومحبة الى عداوة ومشاقة

قال تعالى : [الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ] (الزخرف : ٦٧)

قال الزمخشري :

تتقطع فى ذلك اليوم كل خلة بين المتخالين فى غير ذات الله وتنقلب عداوة ومقتاً إلا خلة
المتصادقين فى الله فإنها الخلة الباقية المزدادة قوة إذا رأوا ثواب التحاب فى الله تعالى
والتباغض فى الله وقيل : إلا المتقين والمجتنبين أخلاء السوء . ^(٢)

فالمتنقون هم الذين تدوم محبتهم وخلتهم كما قيل :

ما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل

(١) الكشف (٤ / ٤٤٢) .

(٢) الكشف (٣ / ٢٦٣) .

ومن بركة التقوى كذلك ينزع الله عز وجل ما قد يعلق بقلوبهم من الضغائن والغل فتزداد مودتهم وتتم محبتهم وصحبته كما قال تعالى : [إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ] (الحجر : ٤٥ - ٤٧)

قال ابن الجوزي : قال ابن الانباري : ما مضى من التأخي قد كان تشوبه ضغائن وشحناء ، وهذا التأخي بينهم الموجود عند نزع الغل هو تأخي المصافاة والإخلاص . (١)

٧ - وهم يسعدون بالصحبه والمحبه وهم يساقون إلى الجنة زمراً زمراً :

قال تعالى : [وَسَيَقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ] (الزمر : ٧٣)

قال ابن كثير رحمه الله :

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفداً إلى الجنة (زُمَرًا) أى : جماعة المقربون ثم الأبرار ثم الذين يلونها كل طائفة مع ما يناسبهم : الأنبياء مع الأنبياء ، والصديقون مع أشكالهم ، والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم ، وكل صنف مع صنف ، وكل زمرة تناسب بعضها بعضاً . (٢)

وقال القرطبي :

قوله تعالى : (وَسَيَقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا) والزهاد والعلماء والقراء وغيرهم ممن اتقى الله تعالى وعمل بطاعته ، وقال في حق الفريقين : (وَسَيَقَ) بلفظ واحد فسوق أهل النار طردهم إليها بالخزي والهوان كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل ، وسوق أهل الجنان سوق مراكبهم إلى

(١) زاد المسير (٤ / ٤٠٤) المكتب الإسلامي

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤ / ٥) .

دار الكرامة والرضوان ، لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك فشتان ما بين السوقين .^(١)

وقيل كل جماعة أو طائفة تعاونت على الخير والطاعة فإنهم ينادون يوم القيامة ويكونون زمرة من الزمر المساقه الى الجنة .

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧ / ٥٧٢٨ - ٥٧٢٩) .

خاتمة نسأل الله حسننها إذا بلغت الروح المنتهى

وقد سعدنا بصحبة التقوى وأهلها وثمارها بين طيات هذا الكتاب المبارك ، فهل لك يا أخى القارئ الكريم فى أن تحقق لنفسك السعادة فى لحظة واحدة ، وهى لحظة صدق يجلس فيها العبد الى نفسه فلا يخدعها ولا تخدعه ، يفكر فيما مضى من عمره ، ويتذكر قول القائل :
ما مضى من أعمارنا وإن طالت أوقاته فقد ذهب لذاته وبقيت تبعاته ، وكأنه لم يكن إذا جاء الموت وميقاته ، قال الله عز وجل :

[أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ] (الشعراء : ٢٠٥ - ٢٠٧)

تلا بعض السلف هذه الآية وبكى وقال : إذا جاء الموت لم يغن عن المرء ما كان فيه من اللذة والنعيم ، وفي هذا المعنى ما أنشده أبو العتاهية للرشيدي حين بنى قصره واستدعى إليه ندماءه .

محش ما بادل لك سالماً	فهي ظل شاهقة القصور
يسعى عليك بما اشتبهت	لدى الرواح وفي البكور
فإذا النفوس تفجعت	فهي ضيق حشرة الصدور
فهناك تعلم موقتنا	ما كنت إلا هي غرور ^(١)

فالدنيا معبر لا مقر وراحلة لا مكث ، والسعيد من اتعظ بغيره وانتهز فرصة الحياة في التزود للأخرة .

قال الحسن : نعمت الدار كانت للمؤمن ، وذلك لأنه عمل فيها قليلاً وأخذ منها زاده الى الجنة ، وبئست الدار الدنيا كانت للكافر والنافق وذلك لأنه أضاع فيها ليلاليه وأخذ منها زاده الى النار ، وكل نفس من أنفاس العمر جوهرة ثمينة تستطيع أن تشتري بها كنزاً لا يقنى ابد الآباد :

يا من بدنياه انشغل	وغمره طول الأمل
الموت يأتي بغتة	والقبر صندوق العمل

فهل لك يا عبد الله في الفلاح والنجاح والفوز والنجاة في لحظة واحدة ، لحظة صدق تتذكر ما مضى من جنيات ومخالفات فتصلح الماضي بتوبة ، وتصلح الحاضر بعمل صالح ، وتصلح المستقبل بعزيمة صادقة ونية مخلصه على الاستمرار في طاعة الله عز وجل والتزود بالتقوى . قال الله عز وجل :

[إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٣١) نُزِّلَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ] (فصلت : ٣٠ - ٣٢)

(١) باختصار وتصرف من (لطائف المعارف) لابن رجب الحنبلي (٣١٥ ، ٣١٧) دار الجيل

وقال النبي : (قل أمنت بالله ثم استقم) ^(١) فما أوجزه واطييه وأجمعه لخيري الدنيا والآخرة و كيف لا وهو من كلام من أوتى جوامع الكلم صلى الله عليه وسلم .

قال ابن القيم رحمه الله :

هلم الى الدخول على الله ومجاورته فى دار السلام بلا نصب ولا تعب ولا عناء ، بل من أقرب الطرق وأسهلها ، وذلك أنك فى وقت بين وقتين وهو فى الحقيقة عمرك وهو وقتك الحاضر بين ما مضى وما يستقبل ، فالذى مضى تصلحه بالتوبة والندم والاستغفار ، وذلك شئ لا تعب عليك فيه ولا نصب ولا معاناة عمل شاق ، وإنما هو عمل القلب وتمتع فيما يستقبل من الذنوب ، وامتناحك ترك راحة ليس هو عملاً بالجوارح يشق عليك معاناته ، وإنما هو عزم ونية جازمة تريح بدنك وقلبك وسرك ،

فما مضى نصلحه بالتوبة ، وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنية ، وليس للجوارح فى هذين نصب لا تعب ، ولكن الشأن فى عمرك وهو وقتك الذى بين الوقتين فإن أضعته أضعت سعادتك ونجاتك ، وإن حفظته مع إصلاح الوقتين اللذين قبله وبعده بما ذكر نجوت وفزت بالراحة واللذة والنعيم . ^(١)

نسأل الله أن يختم لنا بخاتمة السعادة وأن يرزقنا الحسنى وزيادة ، وأن يجعلنا من عباده المتقين الذين يسعدون فى الدنيا بالطاعات ومحبة رب العالمين ، وفى الآخرة بالجنات والنظر الى وجه الله الكريم ،

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

^(١) رواه مسلم (٢ / ٩ -) الأيمان ، وأحمد (٤١٣ / ٣) ، (٣٨٥ / ٤) وفيه زيادة قال : وما أتقى فأولمأ إلى لسانه ، ورواه الترمذى (٢٤٩ / ٩) الزهد ، وابن ماجه (٣٩٧٢) . > بلفظ : قل ربى الله < ^(١) الفوائد (١٥١ ، ١٥٢) دار الدعوة .

مراجع البحث

أ - تفاسير :

- ١- أضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي المدني .
- ٢- تفسير القرآن العظيم ، للحافظ ابن كثير دار المعرفة .
- ٣- جامع البيان ، لابن جرير الطبري ، دار المعرفة .
- ٤- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، الشعب .
- ٥- روح المعاني ، للألوس ، دار التراث .
- ٦- زاد المسير ، لابن الجوزي ، المكتب الإسلامي .
- ٧- فتح القدير ، للشوكاني ، دار المعرفة .
- ٨- في ظلال القرآن ، لسيد قطب ، دار العلم بينها .
- ٩- الكشاف ، للزمخشري ، الريان .
- ١٠- محاسن التأويل ، للقاسمي ، دار الفكر .
- ١١- المنار ، لمحمد رشيد رضا دار المعرفة .

ب - حديث :

- ١- بلوغ المرام في تخريج الحلال والحرام ، للألباني ، المكتب الإسلامي .
- ٢- جامع الأصول ، لابن الأثير ، دار الفكر .
- ٣- سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندی ، دار الكتب العلمية .
- ٤- سنن ابن ماجه بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، المكتبة العلمية .
- ٥- سنن الدرامي ، دار الكتب العلمية .
- ٦- سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني الكتب الإسلامي .

- ٧- شرح السنة للبغوى بتحقيق شعيب الأرناؤوط دار بدر .
- ٨- صحيح الجامع الصغير وزيادات الألبانى ، الكتب الإسلامى .
- ٩- صحيح ابن ماجة ، للألبانى ، مكتب التربية العربية الدولى .
- ١٠- صحيح النسائى ، للألبانى ، مكتب التربية العربى الدولى .
- ١١- صحيح الترمذى ، للألبانى ، مكتب التربية العربى الدولى .
- ١٢- عون المعبود شرح سنن أبى داود لشمس الحق أبادى المكتبة السلفية.
- ١٣- عارضة الأحوذى شرح سنن الترمذى لابن العربى ، دار الوحي المحمدى .
- ١٤- فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر طبعة السلفية .
- ١٥- فيض القدير شرح الجامع الصغير ، دار المعرفة .
- ١٦- مستدرک الحاكم وبهامشة التلخیص للذهبى ، دار المعرفة .
- ١٧- مسند الامام أحمد بفهرس الألبانى ، المكتب الإسلامى
- ١٨- موطأ مالك ، ط الحلبى .
- ١٩- مسلم بشرح النووى ، المطبعة المصرية .
- ٢٠- المعجم الفهرس ، لجماعة من المستشرقين ، دار الدعوة .

ج - رقائى ومواعظ :

- ١- اسنشاق نسيم الأنس لابن رجب ، دار الفتح .
- ٢- تفسير المعوذتين ، لابن القيم ، السلفية .

- ٣- تلبیس إبلیس ، لابن الجوزی المتنبی .
- ٤- جامع لعلوم والحکم ، لابن رجب ، الحلبي .
- ٥- الجواب الكافي ، لابن القيم ، دار عمر بن الخطاب .
- ٦- شرح حديث (ماذنبان جائعان) ، لابن رجب دار الفتح .
- ٧- صيد الخاطر ، لابن الجوزی ، دار الكتب العلميه .
- ٨- صيانه الإنسان ، لابن مفلح ، دار الكتب العلميه .
- ٩- طريق الهجرتين ، لابن القيم ، السلفية .
- ١٠- رسالة المسترشدين للمحاسبي ، بتحقيق أبو غدة ، دار السلام .
- ١١- روضة المحبين ، لابن القيم ، دار الصفا .
- ١٢- الرساله النبويه ، لابن القيم ، بتحقيق أشرف عبد المقصود ، التوعيه الإسلامية .
- ١٣- غالية المواعظ ، لنعمان محمود الالوسي ، دار المعرفة .
- ١٤- الفوائد ، لابن القيم ، دار الدعوة .
- ١٥- لطائف المعارف ، لابن رجب الحنبلي ، دار الجيل .
- ١٦- منهاج العابدين ، للغزالي ، مكتبة الجندي .
- ١٧- نور الاقتباس ، لابن رجب ، المدني .
- ١٨- المدهش ، لابن الجوزی ، دار الكتب العلميه .
- ١٩- المصباح المنير للرافعي ، دار المعرفة .